جنان جاسم حلاوي

يا كوكتي

السلسلة الروائية

RIAD EL - RA
BOOKS

http://abuabdoalbagl.blogspot.com

أبو عبدو البغل

جنان جمال حلاوي

يا كوكتي

رواية

RIAD EL-RAYYES
BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر
LONDON - CYPRUS
لندن - قبرص

YA KOUKATI

BY

JANAN JASSEM HALLAWI

First Published in the United Kingdom in 1991
Copyright © Riad El-Rayyes Books Ltd
56 Knightsbridge
London SW1X 7NJ
U.K.

CYPRUS: P.O.Box: 7038 - Limassol

British Library Cataloguing in Publication Data
Hallawi, Janan Jassem
Ya Koukati
I. Title
892-736 [F]

ISBN 1855131455

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publishers

الطبعة الأولى: أيلول / سبتمبر ١٩٩١

الاهداء

إلى شاكـر الانبـاري، حمـد الانبـاري،
علي الانباري وصباح خطاب...
الماضي ينظر إليهم.

قال شماس: أخبرني من أرقّهم قلباً؟

قال: أكثرهم استعداداً للموت وذكراً وأقلّهم أملاً، لأن من أدخل على نفسه طوارق الموت، كان مثل الذي ينظر في المرآة الصافية فانه يعرف الحقيقة ولا تزداد المرآة إلّا صفاء وبريقاً.

«ألف ليلة وليلة»

كلمات المدينة

ـ حدثني محمد بن عبد العزيز قال: حدثنا يزيد بن خالد بن عبد الله بن ميمون الحراني عن عوف بن أبي جميلة عن الحسن البصري قال: لما قدم علي (رض) البصرة ارتقى منبرها فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«يا أهل البصرة، يا بقايا ثمود، ويا جند المرأة، ويا أتباع البهيمة رغا فاتبعتم، وعقر فانهزمتم، أما اني لا أقول رغبة فيكم ولا رهبة منكم غير أني سمعت رسول الله (ص) يقول: تفتح أرض يقال لها البصرة، أقوم الأرضين قبلة، قارئها أقرأ الناس، وعابدها أعبد الناس، وعالمها أعلم الناس، ومتصدقها أعظم الناس صدقة، وتاجرها أعظم الناس تجارة، منها قرية يقال لها الابله، أربعة فراسخ، يستشهد عند مسجد جامعها أربعون ألفاً، الشهيد منهم يومئذ كالشهيد معي يوم بدر».

حدثنا القاسم بن الحسن قال: حدثنا أبو سلمة قال: أخبرني أبو المهزّم عن أبي هريرة قال:

مثلت الدنيا على جناح طائر، فالبصرة ومصر الجناحان فإذا خربتا وقع الأمر.

وحدثني أيضاً عن هارون بن معروف عن ضمرة عن ابن شوذب عن خالد بن ميمون:

«البصرة أشد الأرض عذاباً وشرها تراباً وأسرعها خراباً».

«من كتاب عيون الاخبار
لـعبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري
المتوفى سنة ٢٧٦ هـ»

* * * * * *

ـ وقال ابن عيّاش لأبي بكر الهذلي:

«والبصرة بمنـزلة المثانة يأتيها الماء بعد تغيير وفساد».

وقال الحجاج: والبصرة عجوز بخراء.

* * * * * *

ـ ويخبـرنـا الطبـري أن وكيـل زيـاد على البصرة وهـو الصحابي سمرة بن جندب أعدم ثمانية آلاف من أهلها تطبيقاً لمبدأ زياد في القتل على التهمة..

«تاريخ الامم والملوك»

ـ وقلت: أوصني أيهـا العبد الناصح، فقال: اجعل الموت نصب عينيك.

«المقامات البصرية»
«عن مقامات الحريري»

* * * * * *

أتعلمين أي حزن يبعث المطر؟
وكيف تنشج المزاريب إذا انهمر؟

وكيف يشعر الوحيد فيه بالضياع؟
بلا انتهاء ـ كالدم المراق، كالجياع،
كالحب، كالأطفال، كالموتى ـ هو المطر!

* * * * * *

أكاد أسمع النخيل يشرب المطر
وأسمع القرى تئن، والمهاجرين
يصارعون بالمجاذيف وبالقلوع،
عواصف الخليج، والرعود منشدين:
مطر...
مطر...
مطر...

«بدر شاكر السياب»

ليست مقدمة

إلى هناك، إلى حيث الطين الناعم، الترف، إلى قاع شط العرب كانت صور المخلوقات الهلامية، تذهب لتستريح، لتفك مغاليق أسرارها لتغير صورها وصفاتها متحولة إلى حيوات مائية راضية بالحد الأدنى من الحياة، مكتفية بتلك الحيلة على مقاومة ضرورات الصراع الجديد، غير قابلة للتأثير، تتناسخ دوماً، وتتناقل نطف البقاء.

هنا في جوف هذا الشط الجاري دوماً بين فخذي مدينة البصرة بادت وتناثرت مدن تناسخت عن مدن ثم عادت واستجمعت ممالكها من مخلفات آثارها وطبعاتهاالمدونة منذ تلك العصور الخالية، على الصخور والأصداف والعظام، والمخلفات البشرية الملقاة باهمال، يغطيها الطين والاشنات، في تجاويف مهد طيني رجراج، ما ان لمسته الشمس حتى فارت رطوبته، وتلبدت على سطحه كتلة ضباب سديمي مشع هائل، وبخار حار فجر الفقاقيع فانسابت منها ديدان قبيحة غطتها قشور غليظة. دبت الديدان ببطء وتثاقل، وتناثرت على الطين مثل دمامل بشعة حتى اقتراب ذلك النجم المذيل بمسارات الضوء والنار جاذباً معه الشهب والكواكب الضالة، التائهة في المديات، وحتى اقتراب ذلك النجم العظيم بذيله

اللماع، بردّ البخار فانقشع الضباب، وتلوت الديدان بقوة دامية، فامتلأ الحوض الخالد بالماء، واختفى غلاف البخار بعد أن استحال إلى مويجات ورذاذ، وندى. قوة جذب هائلة كان قاع شط العرب، لكل تلك الحيوات الضالة والهلاميات التائهة، والبقايا الصورية للحضارات التالفة، الباحثة عن مستقر ومخبأ، لكل شذرة من شذرات قوة البقاء والتحول، لكل جذر من جذور الأصول الموروثة منذ القدم، لكل نسل من سلالة تبغي حفظ نفسها بديلاً عن الحياة الأرضية، بنت الحيوان الدودانية مخابئها، وشقت الحلازين والحبارات والمحاريات قنوات في الطين وحلقت الأسماك الطائرة بأجنحتها السود على أعشاب وشعيرات سامة مضيئة، اكسبت النتوءات القعرية، والقبب القاعية خضرة زاهية، خدّاعة، وانسلت ثعابين الماء بينها، راسمة في الطين خطوط التواءاتها المرنة وسكنت الأرواح والصور الهلامية الغائصة، أبراجاً تحرسها رخويات، تسبح حوالقها في الماء في تموجات متزنة...

فاتخذ بعض الغرقى من نساء ذلك العهد: نساء آغوات أو وصيفات أو بدويات، أو فلاحات، أو عواهر سحاقيات وخادمات وساحرات صورة حييوات قشرية، تتبختر في نفق طويل تهديها خراطيمها الحساسة إلى بوابات يحرسها رجال كانوا بحارة، أو جنوداً، أو باشوات، أو فلاحين، أو حرفيين مهرة، أو سراقاً قتلة، أو شحاذين، أو لواطيين، أو تائبين مؤمنين، أو مارقين حيّالين، مسخوا وتحولوا إلى سمكات فاقدة رؤوسها، وأعناقها، برزت من صدورها للتو، ممصات، تمص منها الخراطيم الانثوية رحيقاً رقّصها، في حركات التفافية، جعلها تتسلق حوالق الأعشاب المائية ثم تسقط خدرة على الطين، تتلوى قرونها وهي تستشعر ذلك

السائل الفائض الذي امتزج بالماء: سائل الخصب والنماء، فنفثت الجمبريات التي التمت حول الراقصين حبيبات مضيئة، بعثرتها في كل الاتجاهات على شكل سحابات مشتعلة، وأضاءت السمكات المهووسة بالظلام...

الجمبريات تقلص عضلات بطنها، فتنط عيونها المشعة، المحمولة على ظهورها مثل مصباح كشاف... فتصدر الديدان النارية لهباً ومّاضاً، وتروح ترقص في زفاف وضّاء، مطلقة شارات خبيثة للذكور الذين قاموا بنشاطهم المحموم حتى الاسترخاء...

تلتصق الحلقيات بعضها ببعض، وتتزاوج مستجيبة للنداء الزفافي، الإخصابي الذي أثارته الهلاميات البشرية، فاستضوأ الماء ذاتياً في مهرجان أعراس ملونة، بهيجة، دام زمناً لحظياً خفت بعده، وتلاشى تدريجياً، ضمت القشريات أرجلها السلكية إلى بطنها ونامت، وانطفأت العيون المصباحية، وانكمشت الرخويات، وبهتت اشعاعات اناث الديدان النارية فانفصلت عن الذكور المستلقين بلا حراك على الأعشاب المعتمة، وهمدت ثعابين الماء وأخذت تقرض بهدوء الأعشاب السامة لتجتر السم بلذة، أسدلت آهلات الماء البشرية القنازيع على صماماتها وسحبت محاجمها إلى داخل مسوخها وسكنت راضية باللذة الخاطفة التي سحقتها تماماً، فغاض لونها، حتى استحال إلى مهاق مزرق قبيح، وأظلمت قيعان الحصباء المسطاحية، ولاذت بقية الأسماك الوديعة بمغارات الأعماق، وأطلقت اللواحم العدوة مجسساتها لتصطاد الحشرات المائية والديدان الطافية الميتة بين طبقات نبات (الشلنت) المتعفنة خلل شقوق الصخور والحصى وحديد السفن الغارقة...

نامت الأحياء، أو ختلت، وأُطفئت الأضواء، وحل ظلام القاع

الأبـدي الذي ما يني يغلف الحيـاة فوق شط العـرب، ليحولها ويصهرها كي تبدأ هي الأخرى حياتها الأخرى، فيهبها فضله من وجود وكيان فائق القوة، وافي الحيلة، تقاوم به موتها، نازعة خيرها وشرها الإنسانيين، متسربلة بعفوية قواسر صراع الأعماق الحيواني.

إنها لا تموت أبداً، فأسماؤها وأفكارها وصورها مدونة، أبدا في سجـل الأحفـوريـات المنحـوت على جدران مسـارات، وقنـوات، ومدرجات وصخور وعظام وأصداف وأحجار وأوراق أعشاب الطين القاعي الزاخر بأنواع الحياة المعقدة، التي أشارت عناصرها، ملحة إلى توالي الأزمان والدهور، في دورات تدور وتدور حول أفق شاقولي يمتد من عمق السماء، مغروزاً ومنتهياً بأكوان المياه.

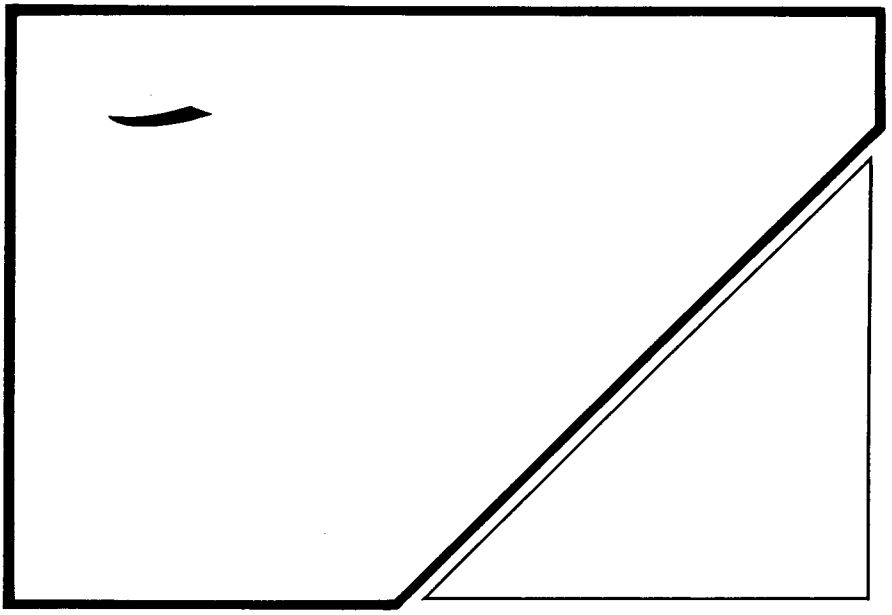

الليل ذلك الاختفاء الغامض في الزوايا، والأركان والغرف، ذلك الذوبان في الظلام والتستر خلف النوايا الشريرة، والأماني العاطلة، والدوافع الماكرة، أو المخلصة الخيرة التي لا ترى أو تبين لذلك المتعجل الذاهب، تطويه العتمة، أو للنائم على الرصيف مثل مسلة سومرية دمرها غزاة عابثون، أو للأغراب القادمين من مدن أخرى، للأجانب الباحثين عن لحظة لذة، للبحارة المسكونين بالمغامرة والكبت الجنسي، للشرطة وحراس الشط وهم يحلقون بحيوانية فائقة في أرداف راقصات ملهى (ليالي البصرة)، إذ يعبرن الشارع إلى غرفهن في بيت على الشط...

كل الأشياء الساكنة، الرابضة منذ زمان غابر، تضمر الآن، نيّة مبيتة، تخبىء سراً، تبثه ليلاً، فيختلج به الهواء والسكون وتضطرب له النفوس.....

إنه عالم مسجون من الرغبات يعج ببصمات أناس ماتوا، وأنفاس نساء قتلهن الحب أو العهر، وأقدام أطفال عراة، وحفيف ثوب موشى بالدنتيلا، وملمس شراشب طربوش، ورنين زر نحاسي يسقط على بلاط الشرفة، وتكتكات رقاص ساعة من خشب الأبنوس

وشقشقات طيور (الفاخته) تترنم فجراً (كوكوكْتي)[1]: (وين بتي، بالحله، وشتاكلين، باكلا)[2]، وحوار خافت لشيخ يحدث نفسه، يراجع ذاكرته، وخطوات خادمة زنجية تطل على الشارع تطلق أصواتاً مبهمة ثم تذوب داخل زخرف شرفة قصر، منيف. كل الأشياء الجامدة، الآن، تحكي، تتكلم، تمارس حياتها، ونواياها خلف حجاب أسود، وضباب سحري يغللها بالحذر والريبة، والشر، يدب مثل أخطبوط استيقظ تواً نافثاً حبره السام باثاً عيونه الراصدات حوله بثقة، وتلوٍ مَرِن، خطر.

كلها اللحظة، تتدحرج وئيداً إلى الشط، تبحث فيه عن ناسها العابرين دوماً إلى المجهول مخلفين بقايا معلقة على شناشيل بيت (المنديل)، وشبابيك فندق (جبهة النهر)، وشرفات القنصلية البريطانية، أو مبعثرة على طاولات (آسيا بار) الملوثة بالعرق والقيء وعصير طماطم المازه، أو المهملة تحت كراسي مقهى (بدر). قوى الحياة والظلام واليباس تحرس تاريخ الشط وتسجله بهدوء ولا مبالاة عجيبة على أوراق اليوكالبتوس، وسعفات النخيل، على الحبال المتآكلة بفعل ملح الماء، والسلاسل، والكلابات الصدئة، وثوابت السفن وألواح السقالات المهترئة.

كلهم يحومون بصورهم السرابية وقد انفصلوا عن ماضيهم المتعب، فتلبسوا مسوح الأشباح الحاضرة: أشباح زخارف الأبواب

---

(١) الكوكوكتي: هديل طيور الفاختة الحزين الذي يوقظ الأطفال كل صباح، فيترنمون به، وينادون الطيور «يا كوْكْتي»...

(٢) من أغاني الأطفال في جنوب العراق.

المقفلة، ومزوقات باحات بيوت الباشوات الخالية، وحجرات النساء وهي تغط برائحة عطر مدوّخة، تنطلق عبر الستر، والأروقة المظلمة، الرطبة، الافعوانية، إلى فضاء الشارع، تتبعها أقدام نساء يتأرجن برائحة الشهوة، والنارنج، واحدة تداعب حلمتها، وأخرى تكحل عينيها بمرود فضي، وثالثة تصبغ باطن قدمها بالحناء، وأخريات يمشطن شعرهن بأمشاط عاجية، أو يعقصن ضفائرهن، بشرائط حريرية حمر، كن يلبسن خلاخيل، مثقلات بالقلائد والأقراط الزرق والخضر والصفر، تشع عيونهن بالغواية والحيلة، يداعبن رجالاً يلبسون الطرابيش، كروشهم مندلقة على أحزمة، (أبازيمها)[٣] من ذهب.

يتلمس الرجال أثداءهن بحنان، وأفخاذهن بلطف، والزنجيات الحاملات نطفاً أبرها دنس قاس، وحشي، يمارسن السحاق مع زوجات الباشا، في بيت الحريم. الآن يطيرون بطلاقة الأثير، خلف الأنظار فوق مياه الشط، والسفن الراسية، ونخيل ضفاف بلدتي (التنومة) و (السراجي)، نائمين، قاعدين، متلوين على المياه الخافقة، المهموزة بوحشة سماء ما تلبث أن تدنو من (النهر الكبير)[٤]، تبغي قسراً مضاجعة السكون الحافل بكرنفال أصوات الحشرات الليلية، يحجزها الليل، ويتخللها، يصعد من المياه اليها، وينزل معها إلى قاع النهر، كتلة، دكناء، مهولة، تطحن العالمين، أعمق من ظلمة توحي بالخوف، والمفاجأة، وانبثاق الأسرار والهواجس غير المتوقعة، وطلاسم الموت والحياة، من قعر الشط، من

(٣) الابزيم: قفل الحزام، جمعها أبازيم.

(٤) النهر الكبير: شط العرب.

بطون السمك، وأجواف المحار، وحجرات السفن نصف الغارقة، والمراكب والابلام[٥] والبواخر المزينة بالأعلام.

إن صوتاً بشرياً واحداً: صرخة، نفثة، شهقة، آهة، صرير أسنان قد يهدم في تلك اللحظة المتوازنة، الخارقة للعادة، كل العالم الواقف على الهواء، ليتناثر قطعاً صغيرة، وكسراً دقيقة، عادت وما انفكت تعطي لماضيها العتيق سمة البقاء العنيد إذ ما يقاوم زواله، غارقاً في المياه، إلى الأبد، بلا رحمة، وبهدوء وصمت. أطفأ (آسيا بار) أضواء نيوناته الحمر والزرق، وتكوم رجل سكران عند بابه المظلم، اشتعل ضوء إحدى غرف الراقصات الفليبينيات في فندق (جبهة النهر) ثم انطفأ: قد تكون إحداهن تبحث عن قرص منوم، أو ربما أرقها السكون، فأشعلت النور كي تفك أصابع الظلام عن رقبتها: أصابع دبقة، منداة برذيلة مساءاتها، كانت تقاومها، تدس وجهها في مخدتها، تخطف بصرها وميضات أضواء الملهى. يدق صدغيها قرع الطبول. تصدح (الكمنجات)[٦].. أضواء حمر، صفر، خضر، تتقاطع مع أغنية صاخبة، تتفجر مع السكسافون.. يتلقفها حضن أحد الطالبين، فيقيء أمعاءه الباذنجانية على فستانها (الكيمونه) الأصفر. تستيقظ، تجد نفسها عارية تحت أشجار جوز الهند، يضيعها ساحل مقفر، طويل، تلعقه ألسن البحر، تنقلب على جنبها، يدس الظلام تحت وسادتها حكمة لبوذا (طهري جسدك، تتطهر روحك)، ظلام السقف يدلق على وجهها دنانير تقهقه، تفرد ساقيها، يعلو صدرها بتنهيدة موجعة: أيا بوذا تعال ضاجعني وطهرني..

---

(٥) الابلام: الزوارق.

(٦) الكمنجة: وتعني الكمان، جمعها كمنجات، في الدارجة العراقية.

آخ، آخ.. أصابع الدبق تتلمس ابطيها. خيط عرق يدغدغ صدرها مثل سرب نمل نعسان، يتعثر في مفرق نهديها الخافقين ببكاء صامت. تتمتم...

ـ ما الذي أتى بي إلى البصرة؟

تقوم تشعل الضوء، تتوقف برهة عند شباك الفندق، ثم تطفىء الضوء وتعود إلى فراشها، ينام معها الظلام وبوذا وقرد يخمش فخذيها بولع، ملطخاً ظهرها باللعاب.

أقفر الشارع على طول الكورنيش الممتد من ضفاف ملتقى نهر العشار حتى نهر السراجي، وهبط هواء ثقيل حار (مبخر بماء الشط، وروائح الاشنات والدويبات المتفسخة)، على أنفاس الحيوات الخدرة، قاتلاً ألق وريقات أشجار اليوكالبتوس المتمرمرة على الضفة: جو خانق من بخار صمغي، لم تطقه النوارس فهاجت في الفضاء، نافضة عن ريشها الندى، والسرطانات الصغيرة التي أغوتها رائحة النتن، خرجت من ثقوب الصخور، وأغوار الطين، إلى المسناة، حتى الشارع، بحذر، منقبة عن الوريقات الساقطة، وبقايا الأطعمة وعما يسد شرهها وجوعها.

لاح اسفلت الشارع وكأنه مغسول بمطر هطل غزيراً لفترة، بلل الجمادات، والهواء، وأعطى الأشياء لون ورائحة الخشب العتيق.

أطبق الشط على الضفتين تماماً، فلم يعد بالامكان تمييز ضفة التنومة المقابلة، إلا من أشباح أضواء المصابيح الزئبقية، التي غبش بخار الماء شعاعاتها، المتكسرة على أمواج الشط، مثل خدوش تترجرج، تتوارى برهة، ثم تنشق عن شعيعات طافية، تقطعها بين

آونة وأخرى: نقاط غير واضحة: علب بيرة فارغة، سمكات ميتات، خشب طاف، أو بقايا قصب يدفعه الموج، من أعالي أحراش مناطق المستنقعات القصبية.

نورس وحيد غرز منقاره في أحشاء العتمة، ثم طار. هبت نسمة حارة كنست ورق الأشجار المتساقط، ومزق الجرائد وقشور بذور الرقي، وأغلفة الحلوى، أسفل الرصيف. بعض السرطانات الجبانة انكفأت إلى أوكارها الجرفية. عليها، على أعناق أشجار اليوكالبتوس، وجذوعها، صمّغ الهواء آثار حزوز كتابات ورسوم، وأرقام، وخرابيش، أسماء فتيات وفتيان وقلوب تقطعها أسهم، وأماني عشاق، وسنين وأحرف انكليزية مائلة.

استضاءت، مرة أخرى، غرفة الراقصة الفليبينية، أدارت مقبض المروحة حتى آخره، بلا فائدة، فالهواء يدور نفسه في الغرفة. فتحت النافذة علّها تتنفس قليلاً هواء طلقاً، غير أن الرطوبة الكثيفة الحارة، لسعت خديها وشفتيها، مسحت العرق عن وجهها، وشهقت الهواء بصعوبة. جف حلقها نزعت ملابسها الداخلية، ونشفت أبطيها وفخذيها، وردفيها بالمنشفة، همست ملتاعة...

ـ أكاد أختنق يا الهي... حرارة خانقة.. حر.

ثم كررت بصوت باك، وشفتاها ترتعشان من الانفعال..

ـ أنا أختنق.. حر.. حر..

عصرت شعرات سالفيها، فتلوث اصبعاها بنقيع دهني، دبق.. نقاط عرق حبيبت ظهرها، وتكويرتي ردفيها، وباطن الفخذين، كرهت افرازات جلدها. كرهت جسدها.

هرعت إلى السريـر وتمـرغت في الشرشف. ثم ولجت الحمـام مسرعة، فتحت الدوش وقرفصت تحت الماء البارد. تحلل توترها، تشققت غلالة العرق الحار عنها. نزعت جلدها الدبق ثم تمددت على ظهـرها، وفتحت ساقيها تحت ماء الدوش، فاجتاحها خدر لذيذ. تنهـدت. عينـاهـا مغمضتان. انقلبت على بطنها. جرى الماء على ظهرها، وجنبيها، كهربت برودة البلاط حلمتيها، وخدها، ثم تمتمت بصوت متعب، متهدج:

ـ الهي.. ما الذي أتى بي إلى البصرة؟!

إن انـطفاء الأضواء، وتوهجها المفاجىء، على ضفتي الشط، خلف الستائر أو أمام الأبواب، أو فوق صفحة المياه نفسها، يوحي بحياة خلفية، غير عابئة بما يحيطها، بما يدور حولها تماماً، فترتاح لاستقلاليتها هكذا مكتفية بوجودها.

لكل حياة من حيوات الضفاف هنا لون خاص، سمة خاصة تبدأ أو تنتهي، تظهر وتزول، دون أن يكون للآخرين شأن بها، أو أية علاقة، وهي إنما ترتب حياتها بالشكل الذي تراه مناسباً بما يضمن تفردها...

هنـا الليـل والشط يدوران في عجلة ساحقة من الملل والخدر والترقب واللامبالاة، دورات، ودورات من النشاط والخمود، التوهج والانطفاء، الأرق، والخوف، الحب والنشوة الطائرة، الوفاق والرذيلة والصدق. لكل كونه، وعالمه، لكل شأنه وهدفه، ولا هدف إلا مضغ الأيام: ساعات وساعات من شهيق وزفير وتبوّل وتغوط وعمل وركض وراء الخبز، والشاي، وموت بطيء على الرصيف أو بين الاشنات، تحت العبـارة، أو في الشرفة أعلى شجرة اليوكالبتوس. إن هو إلاّ

لهاث متواصل وراء العجلة المسرعة، رغم بطئها، ديدنها الغريزة الزائلة، واللذة الماحقة، لذة الجسد الأكول النهم، لذة العقل التواق إلى المجهول: ذلك البعد والمنأى الذي يلاشي كل شيء فلا تبقى سوى تلك النسمات الحارة، وبخار الشط، والأضواء الطافية، أو الخاتلة بين شقوق الشبابيك، ملتفة على حديدها، مموهة نفسها بخدعة قديمة.

الراقصة تغفو في الحمام تحت ماء الدوش، ويلزم الفواق ذلك السكران المتكوم تحت مصابيح البار المطفأة.. يقترب منه شرطي عجوز، يخز ذكره بعصاه، يشتمه، ثم يتابع سيره منعطفاً في زقاق مظلم، تدل عليه طقطقات حذائيه.. تصلصل سلاسل العبارة، اثر اهتزازةٍ مفاجئة، سببها تيارات المياه غير المرئية. تتجمع الأسماك حول ضوء فانوس أحد المراكب، تتخبط داخل الشباك، تلبط، تهتز الشبكة، يتمايل الزورق، منبهاً الصياد الغافي على مخدة بللتها رياح (الشرجي)[٧]. القاتلة. يفز أحد الهنود النائمين على سطح مركب (البوم)[٨] ينزع (وزرته)[٩]، فيمسح صدره بها ثم يستلقي شابكاً يديه خلف رأسه. أرق مفاجيء. يتطلع إلى بيت الراقصات، إلى نور الغرفة العليا، يقول لنفسه:

ـ حرارة.. أظنها قادمة من بلدي، أف.

---

(٧) الشرجي: رياح حارة، رطبة جداً تهب على البصرة صيفاً، من المستنقعات.

(٨) البوم: من السفن الشراعية التي ما زال البحارة الهنود يبحرون بها من الهند إلى البصرة، والعكس.

(٩) الوزرة: قطعة قماش ملونة، يلفها البحارة الآسيويون حول بطونهم وسيقانهم.

حرارة خانقة.. البصرة، متى نغادر هذه المدينة الملتهبة.

يداعب شعر زميله فيوقظه. يتثاءب ويبربر متبرماً:

ـ ما بك؟ لماذا لا تنام؟

ـ حرارة. أكاد أحترق.

يهمهم زميله بكلمات مترجرجة:

ـ أي حرارة. نم. لا تزعجني.

أشعل الهندي اليقظ سيجارة، وعاود النظر إلى شباك الراقصة بضجر. لذع الدخان الحار لسانه، تفل التبغ ثم رمى السيجارة إلى الشط. لا شيء يفرحه، يريد أن ينام سيغني. لحّن بخفوت طنطناته وغنى لنفسه هامساً...

هنالك في البنجاب
بحثت عن الحب، تحت أشجار الجوز
تحت السماء الزرقاء...
هناك في البنجاب قررت الرحيل
باحثاً عنها.. في البحر بعيداً

نبر: ...

ـ أوف سألقي نفسي في الماء.

استيقظ زميله..

ـ لماذا لا تدعنا ننام؟ لماذا لا تكف عن سخافاتك..

ـ أووف.. هذه الحرارة.. اعذرني.

ثم أغمض عينيه مجبراً، مغادراً المركب إلى البنجاب... إلى حيث جوز الهند وقباب المعابد، والسماء الزرقاء اللامتناهية وغابات البامبو.

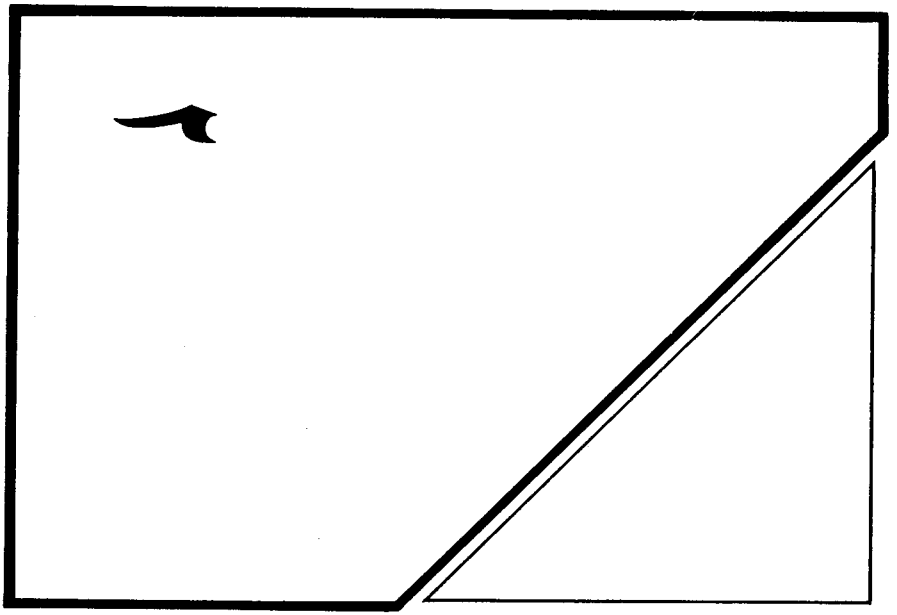

كان سلمـان العبـد يرقب ضوء الغـرفة العليا من مكمنه على الجـرف. كم تمنى أن تكون ضربة الشرطي قد قتلت ذلك الرجل العنيد سالم نو الكسول، البوّال الذي يجرره ندل البار كل فجر، ليلقوه في الشط كي يفيق من سكرته.

أما ذلك الشرطي فهو الآن (وذلك أكيد) يلوب بين فخذي الزنجية عواشة، دافناً رأسه بين ثدييها المتهدلين.

أف كيف تحتمل رائحة شاربيه النتنين وهو يقبلها. أف كيف يحتمل ذلك الوغد رائحة أسنانها، المنخورة...

ماذا دهى تلك الراقصة هذه الليلة، لماذا لا تنام؟ سلمان العبد يوسوس شاعراً أن أموراً غير طبيعية، تجري خلف الشارع، لذلك لا بد من انجاز عمله الآن، وإلّا فإن القواد الجالس مع الراقصة قد يطل من النافذة في أية لحظة، ويراه. بين مقعد مركب من ألواح مثبتـة على قاعـدتـين اسمنتيتـين، ومسنـاة الشط تحت شجرة يوكالبتوس عالية فخمة، كان سلمان العبد جالساً يتفحص الثوابت والمتحركات، الأضواء والأصوات، الخيالات والظلال معتبراً مكانه

هذا قلعة حصينة، ومرصداً خفياً، وقاعدة بابها الليل، وسورها الظلام، مقتنعاً بأن الذي يكتشفها لا بد وأن يكون متواطئاً مع الجن والأبالسة للقضاء عليه. ولكنه سيتركها حالما يشعر بالخطر، والموت، حالما يجتاحها ضوء النهار، أو يزيل عمال البلدية المقعد المحطم، فتسكن اليوكالبتوسة العجوز الثعابين والصلال. عندها سيفكر بمركز آخر لعملياته الليلية، وستجري الأمور على ما يشتهي.

أنى للشياطين أن ترى جسد سلمان الأسود ليلاً، ستضيعه وسيغيب عنها ويهرب، يختفي في طاقية اخفاء يحلم بها حتى الأمير سهيل، فيفلت من بين الأصابع، مختالاً، معجباً بفتوته ومرونته.

شهق بصعوبة كأن الهواء يصعد سلم أضلاعه مجرجراً زوائده المائعة تحت جلده المخطط بخطوط ملحية خلفتها أمواه نهر الخندق.

ذلك الصباح حين غاص إلى قاعه بحثاً عن خاتم فضي، دونما جدوى، وقد كان احساسه بالفشل مؤلماً وقاسياً، وإذ ما ضحك الصبية البيض عليه، وتحدّوه، أين يجد الخاتم، لم يسكت عنهم بل طاردهم حتى تخوم محلة صبخة العرب متوعداً، صارخاً بهم: انه سيضاجعهم واحداً واحداً، إذا فاهوا بكلمة واحدة عن ذلك الخاتم اللعين ولكن ما الذي يستطيعه وماء النهر الأخضر يحرق عينيه وهو ينقب في قعره، بين إطارات السيارات الممزقة، وصفائح السمنة الملأى بالطين الأزرق، والعلب، وجمجمة حصان، متحدياً (الرفش)[1] القاتل الذي لولا مهارته وسرعته، لكان قد فقد خصيته

(١) الرفش: سلحفاة ضخمة، يعتقد العراقيون أنها مولعة بالتهام الخصي.

إلى الأبـد. وأولاد الزنى البيض يضحكـون عليه، ويعيرونه لأنه يخاف الرفش عدوه.

الكـواسـج لا تخيفه، الثعابين يلعب معها، الضفادع يحذرها لأنها تبول عليه، وتملأ جلده بثوراً، ولكنها تؤنسه.

أولاد القحبة يضحكون، لماذا لا يغوصون في الشط ويرون ذلك الحيوان الصاعق عدوه كيف ينقض عليهم ويقطع لحمتهم الترفة.. خوافون. كم فزعوا وصرخوا يوم اصطاد دودة (أبي الزمير)[٢]، ولما أراهم شوكتها ترتجف تحت عينيه اليائستين، صرخوا به محذرين: سلمان يقرصك. لا تضع اصبعك على الشوكة. سيقرصك يا سلمان.

أنا لا أخاف أبا الزمير، ولا عبد الماء، ولا الضفادع، إلا الرفش فهو كـ (الحنفيش)[٣] الله يستر، حمداً لله أن الحنفيش لا يرتاد نهر الخندق، وإلا لترك السباحة نهائياً، فإذا كان الرفش يسبح ويغوص، فالحنفيش يطير خلال الماء، ويثقب الجسد ويحرق البطن بقرونه وأجنحته وأشواكه.

كما كان ذلك اليوم فرحاً لما سقطت العربة التي يجرها الحصان الأسـود بعيداً عن منعطف مقام الخضر: انفلشت الأرض تحت العجلة الخلفية، مالت العربة، التوت ثم، هوب، انقلبت وجرت معها

---

(٢) أبو الزمير: نوع من الحنكليس يعيش في الأنهار ويقتات على بيوض البعوض.

(٣) الحنفيش: ثعبـان مائي أسـطوري يعتقـد عامـة جنوب العراق أنه يطير ويخترق الأجساد.

الحيـوان إلى النهـر. النسـوة يصرخن فزعـات، يطفن فوق الماء، وعباءاتهن منتفخة كفقاعات سود.

خوافات لم يكن الماء عميقاً، والحصان المسكين غاصت ركبتاه في الطين، حتى دخل الماء أذنيه ومات، لو استطاع أن يرفع رأسه قليلاً، لو لم يدخل الماء أذنيه لكان قد نجا، ولكنه غاص حتى فطس. يا للرأس الثقيل.. آخ.. الوحيد الذي رآه يبكي وهو يصهل يائساً يتنفس بقـوة، نافثاً، الهواء، وساقاه تقاومان فخاخ الوحل، غرق بوزه، لكمـه سلمـان، ارتد الحصان، وغط، لكمه ثانية، لا فائدة، المياه تكاد تبلغ مسافة اصبع عن تجويفي أذنيه، تسرب الماء إلى عمق دماغه، نقع مخه ومات واقفاً.

كان سلمان يؤنب نفسه، كونه تباطأ في انقاذ الحصان، حينما انشغـل بدايـة بتخليص تلك المـرأة التي سحبهـا من عبـاءتها واحتضنها. كان الماء يصل منتصف بطنها وهي تعيط، ولما جرها إلى الجـرف. قافزاً على الطين اليابس، وأنقذ روحها من الموت فزعاً. زجرته وصرخت عليه، وإذ سألها الرجال لماذا تصرخين على سلمان، قالت امسكني من فرجي.. القحبة. كان يجب أن ينقذ الحصان المسكين فهو أشرف منها بكثير، غير أنه لا يتذكر كيف ناش كسّها، وان كانت أصابعه تتحرك وتتلمس الأشياء دون وعي منه، وأحياناً بوعي مقصود... كثيراً ما يغريه اللحم الأنثوي لأن يلامس كل ثنية تطالها أنامله، ثم ينتشي فخوراً أمام البيض، انه يستطيع أن يفعل ما لا يستـطيعونه، ولقد تورط مرة ضربه بسببها (حسن)، عامل المسبـح، فأدمى أنفه. لا يدري كيف سمح له (حسن)، بدخول مسبـح بهو (الادارة المحلية).. ها تذكر، لقد طلب منه أن يلملم

قناني البيبسي كولا، حول حوض المسبح، ليرتبها داخل صناديقها، مقابل السماح له بالسباحة. المفاجأة صعقته تماماً، فهو لم ير نساء عاريات، نساء انكليزيات بيضا، شقرا، عيونهن زرق، حلوات يسبحن مثل البط، وها احداهن تطلب منه أن يأتيها بزجاجة بيبسي كولا، فرح. فتح لها القنينة، وجلس جنبها متفحصاً صدرها وبطنها، وشعرات عانتها المنفلتة من حز المايوه، بيضاء قطن، سكّر. قالت له شيئاً وأشارت إلى وجهه. قصدت عينيه الحمراوتين. فهو مذ كان صغيراً، كانت أمه ترش دقيقاً كالتراب في موقيه، حتى صارتا كالدم، كعيني الحصان الميت. جاء حسن. طلب منه الابتعاد عن الانكليزية ومواصلة لملمة القناني الفارغة، غافله ونزل إلى الحوض بهدوء. ضحكت الأجنبية من لباسه الطويل، ووصوصت بصوت رفيع وحدجته بحب وشفقة. ثم ألقت بجسدها إلى الماء. لم يصدق عينيه. غط طويلاً وراءها. لحمها الأبيض يتدلى رائقاً يطبطب، يراوح رشيقاً. لا يدري كيف والله احتضنها، كضها وجرها عميقاً. اختلج رأسها. رفسته. ثم عامت على سطح البركة. صرخت أصر على رؤية كسّها. سحب لباسها فنزل بسهولة عند ركبتها. رفسته. ابتعد. رفسته. طوقته ذراعا حسن، ثم ضربته، أشفقت عليه الانكليزية وتدخلت لإنقاذه. ذلك الكلب (حسن) لحسن الحظ أن أخته عرجاء، وأمه العجوز تبيع (اللبلبي)[٤]. لو كانت شريفة لما اقتعدت الشارع تبيع اللبلبي!

لم يخسر شيئاً سوى بضع نقاط دم من أنفه، مقابل حكايات وحكايات تباهى بها أمام الأولاد. ملمس اللحم الأبيض. المثلث

(٤) اللبلبي: الحمّص المطبوخ.

الأسـود بين الفخذين، الردفان الطافيان، تموّج الشعر الأشقر. وصوصة المرأة. كانت تحبه. لقد أحبته، وإلا لما ترجت حسن كي يتركه. بضع قطرات دم مقابل ذلك المثلث الحساس الذي يحلم به كل ليلة، ويغوص فيه... لينا، لينا، حتى الاغفاء.

شعّت في الظلام جمرة سيكارة، تعلقت بالفضاء، ما لبثت أن خفتت تذبـذبت ثم رسمت قوساً نارياً فوق حافة البوم، وتلاشت حيث غور الماء قاس بعتمته. اشتد قلق سلمان وهو يرى البحار يرمي سيكارته. تابع خط السيكارة الناري، المتحرك من يد البحار، حتى نقطة اختفائه، بين المويجات. دقق في قسمات ذلك المستيقظ دونما جدوى. مجرد ظلال متحركة حالت الظلمة وحافة البوم دون أن تعطيها سمات بشرية واضحة. البحار الهندي يوشوش ويتقلب. شك سلمان بأن هناك من يحرس. ولا بد أن يتأنى ويستطلع قبل أن يقدم على ما قد يأتي بكارثة. فالبحارة الهنود نشطون حذرون حتى أثناء نومهم، يفزون لدى أدنى نأمة.. علمهم البحر أن يكونوا حريصـين على ما تعبوا من أجله أياماً وليالي، مجتازين الأهوال الميتة، عبر أوقيانوسات الظلام.

البحـارة هم النـاس الوحيدون الذين يتماهاهم سلمان لأنهم لا يهابون الموت، ولا الغيلان، ولا أفاعي البحر، كم تمنى أن يصير بحاراً فيزور الهند والصين وجزر الواق واق.

لن تغيب عن ذاكـرتـه حكايات مهدي البحار الذي زار الهند وسيـلان: مهدي الذي اعتزل الملاكمة بعدما سقط متشنجاً على حلبة نادي العشار مصاباً بالصرع. ليعمل كادحاً على سطح سفينة (ابن خلدون)... يا له من محـظوظ لقـد زار العـديـد من المدن

والسواحل والموانى، أما الهند وأعاجيبها فهي درة حكاياته وأحاديثه. يقول، مرة، رغم أن الآخرين يكذبونه: «شاهدت في بومباي ساحراً مثقلاً بأفعى هائلة تكسو جمجمتها قلنسوة حرشفية، تعلو جنبيها قرون من عظم، تريد نطح الساحر ورأسها مدلى إلى الأرض. كانت تتقلص، تنبرم، تلتف على نفسها، ينكتها الهندي، خاذلاً رأسها أسفل فأسفل. يقول مهدي إن لدغتها تحرق القلب وتحيل الدم «زفتاً» في رمشة عين... حقاً ولماذا يكذب مهدي فالهنود بارعون مع الأفاعي».

- وإذا بذلك الساحر!

يصرخ مهدي نافضاً أصابعه أمام وجهه «يبطح العربيد على خشبة قاطعاً رأسه بمدية مقبضها عظام قرون الأفاعي ذاتها ثم يعصر دمها داخل كأس فضية رسم عليها عنكبوت، له عين واحدة خضراء، يسلخ جلدها، يملص لحمها، ويستخرج مرارتها، ليخلطها مع سائل حلو أصفر، يبيعه بثمن باهظ جداً، لأن من يشرب هذا المزيج يمكنه مضاجعة زوجته عشر مرات في الليلة الواحدة على الأقل». اقشعر بدن سلمان من مجرد تذكر ذلك العربيد، لا بل من مجرد علمه أن أولئك الهنود يشربون سم الأفاعي، فيجعل أعصابهم قوية كحبال المراكب، وعيونهم لامعة.. تلك هي المرة الأولى والأخيرة، وسيعود ليجرب حظه مع العمانيين، والكويتيين الذين طالما نجح معهم ولم يمسكوه.. فعلاً كان قد سمع أقاويل كثيرة عن الهنود جعلته يقشعر رعباً ورهبة. «تلك القحبة الفليبينية ها هي مستيقظة حتى الآن»؟ رنا إلى الضوء اليتيم، الملتصق بعناد على شباك غرفة الفندق.. ألا يكفيها الرجال صباحاً.. النساء

لا يشبعن أبداً.. آه.. نام الهندي. سأنتظر حتى يغفو تماماً.. الهنود.. سأجعل صراخهم يضج صباحاً... سلمان يخدعكم ويضحك عليكم، بل سيجعلكم تتوبون من ممارسة السحر.

إذا كان مهدي يكذب بشأن العربيد، فهو لا يكذب البتة، حينما أقسم بالإمام العباس، وركض إلى بيته، ثم عاد عارضاً عليه قلادة من الخنافس الملونة، تلصف أجنحتها بألوان بنفسجية وشذرية ووردية. بطونها مدرعة تتوهج فسفوراً لاصفة كصدريات عمال البلدية ليلاً. خنافس مضيئة، شواربها مفصصة، ثابتة أمام عيونها... عشرات العيون فوق صدر كل واحدة. تتماوض. كان قد أهدى القلادة لأمه التي رفضتها، مشمئزة، وصارخة: «وهل يعلق الإنسان خنافس على صدره؟».

ألح سلمان على مهدي كي يبادله إياها بضفدعة بنية. ضحك مهدي وقال: ثمنها غال، ولن يستبدلها ولو بخرزة سليمان، وسيحتفظ بها للذكرى.

ـ الحمد لله انني لم أستبدل القلادة بالضفدعة البنية النطاطة فهي ممتعة وذكية....

كم غضب وشتم حينما ألقتها أمه في البالوعة وحذرته من إعادتها إلى البيت وإلا ستدس الفلفل في مؤخرته.. إنها لا تقدر الضفادع. ولا تحترمها.. حيوانات رعديدة، تبول وتنق جوعاً. لم يمتعض حينما أجبرته أمه على غسل يديه سبع مرات بالصابون خوف أن (تتجرذم) من بول الضفدعة، فتغشي جلده الدمامل.

كان سلمان العبد يتفرس في كل متغير، متحرك، غير عادي،

يحسب ذهنه الحذر كل الاحتمالات التي تعودتها فطرته بالمران، فهو يرى خلل العتمة أكثر مما يميز الخفاش، ويشم روائح التراب وإفرازات الأشجار، ودخان السجائر والصمغ عن بعد، وبقدر ما قد يأتيه الآخرون من أفعال، وما ينوون اتيانه. فإذا اقتربوا أو ألحوا فيما يريدونه، وإذا دفعهم فضولهم أو ضجرهم، شرههم ونباهتهم الى مراقبة حالهم وحال الآخرين، بعد منتصف الليل، فإن سلمان سيدعهم وشأنهم، فهو أضعف منهم. فهم قادرون على ضربه أو زجه خلف قضبان السجن، وربما قتله، ما دامت الحاجة تدفعه لاقتراف ما يسميه الآخرون إثماً وجريمة وقبحاً.. كل حواس سلمان الآن يقظة، يقظة استثنائية، وبصماته تتحسس الهواء الرطب. كان يربض في وكره راصداً ما حوله، بحركات رادارية، بصأصة، متأكدة من نفسها، أو تتوهم ذلك غير أنها لحظة تشوشها، تتشوه المرئيات معها، آخذة طابعاً خطراً، ينكمش عندها سلمان قلقاً، وتتسارع أنفاسه. يسقط قلبه. لحظات. حتى تستوي الأمور ويوقن أن الآخرين لا شأن لهم به. يعود قلبه إلى مكانه ويكف الدم عن حرق صدغيه، وشحمتي أذنيه.

سلمان لم يعرف نفسه تماماً، ولم يكتشف قدراته، إلا جزئياً، لأنه بدأ متأخراً في اكتشاف الآخرين. بل في اكتشاف احتياجاته واحتياجات أمه ـ جدته، معتمداً بداية على طاقتيه الذهنية والجسدية، اللتين راح يغنيهما لا إرادياً باكتشافات وتصرفات وردود الناس المحيطين، وبلا وعي منه طفق يسد نواقص تصوراته، واستجاباته، مكثراً من التجوال الحر، والمشاكسة، وارتياد الظلام، ومراقبة الجمادات والأحياء، منبهراً، ولكنه سرعان ما ألف

واستأنس محيطه، شاعراً، أن فكره يخطىء أحياناً، ولكنه يصيب دوماً، وانه سينجح يوماً بضربة موفقة تدهش أمه ـ جدته، التي لولاها لكان الآن في السجن.

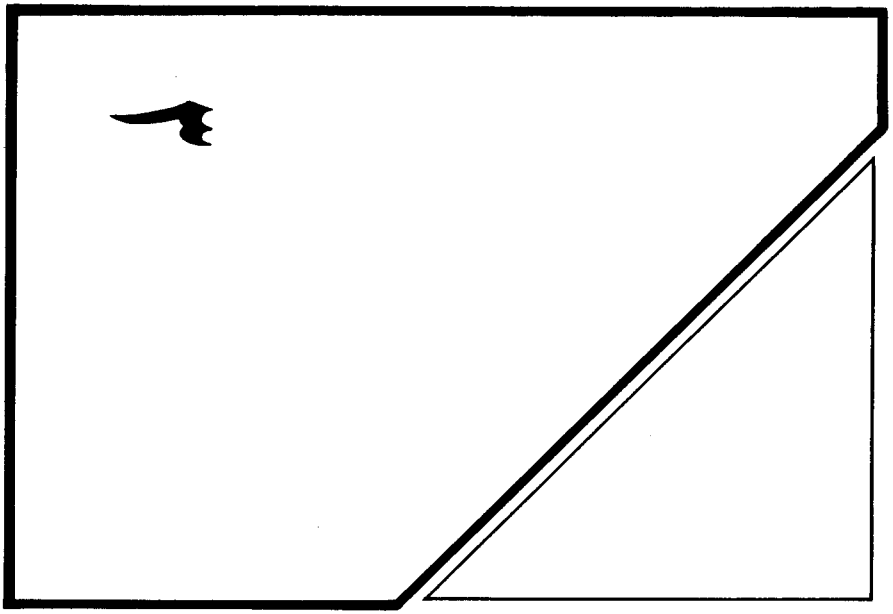

لحظة ذلك السكون الشامل، عبرت قطة بيضاء، نطاق ضوء يبثّه مصباح زئبقي يتدلى مسافة خطوات من مخبأ سلمان العبد. هذه الاعمدة كما لاحت لسلمان، ليست مفيدة، بل مضرة لأنها تجمع البرغش والبق، ولا تنير الا بقعة ضيقة جداً من الشارع، أما ما خلف العمود، حذاء الضفة أي ما بين الشارع، والشط، فالمكان يبقى مظلماً تماماً الليل. لم يدرك سلمان الا سبباً مرئياً لضعف أنوار المصابيح الزئبقية بشكل عام، بينما كان لانخفاض تلك البقعة عن مستوى الشارع وكثافة اشجار اليوكالبتوس التي تظللها، اسباب أخرى ساعدت على تكتل العتمة سيما وان مياه شط العرب الدامسة، محاذاتها تمتص كل نأمة ضوء وتضعفها.

بفضول حوشي راقب سلمان القطة وهي ترتقي رصيف الشارع، ثم مسناه الضفه. خمّن أنها شمت رائحة السرطانات الزاحفة وان عشاء دسماً ينتظرها.

لحظات.. غيرت القطة رأيها وعادت إلى دائرة الضوء المكفن ببخار الهواء الرطب: ضوء بارد لا ينير غير جزيرة اسفلتية بيضوية، حاصرتها ظلال أغصان شجرة اليوكالبتوس وطبقات القتام

السمـاوي الهـابطة بمكبس هوائها المبخّر الذي شرنق المصباح بغشاوة ضبابيه، فما عاد الا وهجاً ينير نفسه، كأنه بالون ضوئي، طائر في الفضاء تسنده ابخرة الشط الثقيلة.

القطة تخزر الهوام الطائر، تقف على قدميها الخلفيتين، تصفع الهواء تبغي مقاتلة البرغش.. تراجعت إلى الوراء ثم انقضت على خنفساء، سوداء مدرعة، تدب متثاقلة خارج عصارة العتمة المائعة، داخلة أرخبيل الضوء، تجرجر وراءها ظلها سائحاً، ممطوطاً، يسيل خلفهـا ممـوهـاً معمياً. لطشتها القطة بكفها الأيمن، ثم الأيسر. عضتهـا ونكتتهـا ملتذة... هرّت وزأرت وهي تكرر ضرباتها دون معنى، موسوسة بتعذيب الدرع المفلطح.

التقـط سلمان حجراً، رماها، فأخطأها، وهربت خارج الدائرة المنيرة، جاهدت الخنفساء كي تعتدل، رافسة ارجلها، دورت جرمها متسارعة سرة ضاعقة، في أزيز مسموع ثم انقلبت واعتدلت، ودبت هي الأخرى خارج البقعة المكتظة برغشاً وبعوضاً ميتاً أو موشكاً على الهلاك.

ناس الشبح القلق المخمور عند باب (آسيا بار). شد سلمان أعصاب عينيه، واخترقت حدقتاه ستر العتمة ليتأكد مما سيفعله السكير المجنون (سالم نو). خطا الشبح إلى امام، ترنح، ثم اتكأ جدار البار. تمسك بالسياج. حاول الخطو ثانية، لم يستطع انزلق بطيئاً الى الأرض ثانية، حاكاً الجدار بظهره، سمع سلمان صوت تكومه، حينما مال جذعه. فلم تسعفه رجله اليسرى التي استند اليها والتي ارتخت تحت ثقله، مد يده اليسرى ليتفادى سقوطه.

طوح رجله اليمنى، خذ له الجدار. طارت اليمنى امامه، منهاراً على جنبه الايسر، طاويا ركبته المائعة بين بطنه وصدره منكفئاً على وجهه هامداً مثل حائط منهدم.

* * * * * *

٤

صمت شرفات الشناشيل، على شارع الكورنيش تقلقه تكتكات عقـرب الثـواني: عقـرب يلهث خلف ساعـة الحسم، حيث يتلكأ البندول قبل ان يحك أوتار الرنين بقرصه النوّاس.

السكـون على الشـاطىء عقـرب يتكتك هو أيضاً منتظراً ذلك الرنـين الموعود. البحاره والمجانين والشرطة والعمال والشحاذون والصيـادون: ساعـات تنتـظر يقظتها حال ارتجاف تلكم الأوتار الحساسة، وقتها تتلاشى الاحلام. وتنبثق العيون في النور والظلام أو في الظلام وحده، باحثة عن المفاجأة والخديعة.. همود وسبات الطيـور والزواحف، واللبـونات والصدفيات والاشجار يتربصها عقرب الثواني المتحرك صوب الدقة العظيمة والرنة الحاسمه، رنة الابتعاد والانسحاب والانزواء الى عتمة الشط، أو جحور المباني، أو شقوق الأرض.

الساعة الكبرى: ساعة الأرض ذاتها، قلبها ينتظر ويرى الى تلك الدقـة السـاعـاتيـة الزمنيـة التي ستأتي بالتحول واليقظة، أو بالتشوش والتمرد والمروق.

كان قلب سلمـان العبـد ينبض بالزمن وجيبـاً سريعـاً، تدور التروس داخل رأسه، يتناظر تسارع النوابض في قلبه، تشع عيناه ببـريق ماسـة الوقت الحكاكة. دم شراييـنه لحظات سائلة تمرق دقـائق، ساعـات ودهوراً.. ها قد آن الأوان، قفزه واحده يقفزها العقرب صوب الرقم الوهمي (أي رقم). كي يحل الزمن الآخر. ترن الساعة. دن. رن. دن. رن. تتوتر أعصاب سلمان العبد. يشهق الزمن السلماني الوحيد الذي لا يعرف سوى سلمان نفسه. زمن العيش غير المشروط الا بشروطه المقررة، المرسومة والمصاغة، منذ أن ملصته القابلة من فرج أمه. دن، رن، دن، رن، دن. يا سلمان اقفز لقد اقسمت على ذلك مذ دست القابلة في فمك ساعة حياتك وغصصت بهـا عقاباً لك.. دن، رن، دن، رن... يقفز سلمان إلى زمنه، يختفي العالم، إذ يغط سلمان تحت الماء سابحاً صوب المركب المتهـدهـد على لهيب الرطوبـة. قبل ذاك، قبل النطه الشيطانية، تحسس كيس النايلون المطوي والمربوط بعناية على رأسه، تم قض أسنانه على سكينه، داساً كومة ملابسه تحت الشجرة الغافية.

الماء يحتضنه، حلقات اهليلجية، يرسمها جسده، يسبح دون طرطشه، مناسباً انسياب البطة الونيء، تتسع الاهاليلج، تنفتح خلفـه، تتفكـك، ثم يولد اهليلج جديد يولّد أخريات، تتحول الى اهليلج الجسد نفسه، شكله مرسوم على الماء، جسد اسود على ماء أسود، تخلقه، تماطله، التحولات. فهو تارة دائرة بيضوية داخلها دوائر مائية صغيرة تفور مراكزها بدوامات صغيرة. كل عضو فيه، اطرافـه، رأسـه، بطنـه، ظهـره، تتقـولب اهاليلج مائية، تجذبها المويجات المتباعدة ثم تلتم بمغنطه التواشح بين الدوائر والأقواس المنجلية المفتوحة النهايات، تتجمع اشكال قطع الجسد لتظهر فوق

الماء مستمرة تنطلق مستقيمة، نحو الهدف الخشبي الأسود، خارج نطاق اهليلج الجسد ، بل خارج مجال حياة سلمان المائية.

مسّت اصابعه جسد سفينة (البوم). غاص الى بطن الماء السوداء، الشط زنجي أكبر فهو ابوه، أو أحد أجداده، أحشاء الشط هي أحشاء أجداده، من عصارة دمهم، اصلهم ماء. واصله ماء، ترك لجسده حرية الانسياب تساعده عصارة الزنوج، ماء سوادهم، الذي لوّن جلودهم فصاروا كالقار، بعد ان كانوا بيضاً، امعاء الشط صبغة سوداء اصلّت السلالات بالزنوجه، لتتمايز الاجساد المائية عن الأخرى الترابية، والشط يتباهى، يفخر بوشمة على الأرضين، هاتفاً هاكم حياة الماء: سوداء.. سوداء.. سوداء..

كان سلمان يرى دائماً (وبوحي من جده الذي مات) الأشياء والكائنات والجمادات، إن كانت أقماراً، أو حشرات، أو أسماكاً، أو بشراً، أو أشجاراً، أو أعشاباً، يرى فيها بعضاً من مزايا ولمسات أجداده.

فالقمر زر لماع في سترة الليل، والشهب نبوءات الأنبياء السود، والأشجار شواهد قبور الزنوج، والأسماك أطفال السود القادمين من أفريقيا، والذباب أرواحهم الطائفة، والشاي دموع الأعشاب المسودة، والليل رداء اخوانه نزعوه ونشروه على السماء، والبيبسي كولا لعاب أسود والعيون الزرق فقدت ماءها الحقيقي فهي من الشيطان، والشعر الأشقر احتيال على الشعر الأسود، والملائكة سود، والاسفلت بصاق السيارات، والفحم لحم النار، والنهار كذبة الليل، وكل آذان هو صوت بلال الحبشي، والقرآن كتب بحروف سود، والحجر الأسود، حجر الله..

الماء مستمرة تنطلق مستقيمة، نحو الهدف الخشبي الأسود، خارج نطاق اهليلج الجسد ، بل خارج مجال حياة سلمان المائية.

مسّت اصابعه جسد سفينة (البوم). غاص الى بطن الماء السوداء، الشط زنجي أكبر فهو ابوه، أو أحد أجداده، أحشاء الشط هي أحشاء أجداده، من عصارة دمهم، اصلهم ماء. واصله ماء، ترك لجسده حرية الانسياب تساعده عصارة الزنوج، ماء سوادهم، الذي لوّن جلودهم فصاروا كالقار، بعد ان كانوا بيضاً، امعاء الشط صبغة سوداء اصلّت السلالات بالزنوجه، لتتمايز الاجساد المائية عن الأخرى الترابية، والشط يتباهى، يفخر بوشمة على الأرضين، هاتفاً هاكم حياة الماء: سوداء.. سوداء.. سوداء..

كان سلمان يرى دائماً (وبوحي من جده الذي مات) الأشياء والكائنات والجمادات، إن كانت أقماراً، أو حشرات، أو أسماكاً، أو بشراً، أو أشجاراً، أو أعشاباً، يرى فيها بعضاً من مزايا ولمسات أجداده.

فالقمر زر لماع في سترة الليل، والشهب نبوءات الأنبياء السود، والأشجار شواهد قبور الزنوج، والأسماك أطفال السود القادمين من أفريقيا، والذباب أرواحهم الطائفة، والشاي دموع الأعشاب المسودة، والليل رداء اخوانه نزعوه ونشروه على السماء، والبيبسي كولا لعاب أسود والعيون الزرق فقدت ماءها الحقيقي فهي من الشيطان، والشعر الأشقر احتيال على الشعر الأسود، والملائكة سود، والاسفلت بصاق السيارات، والفحم لحم النار، والنهار كذبة الليل، وكل آذان هو صوت بلال الحبشي، والقرآن كتب بحروف سود، والحجر الأسود، حجر الله..

تمسك بالحبل ذي العقد السلامية، شدها اليه، فشدته اليها.. ثم ارتقى سطح البوم.

بعض من انعكاسات أنوار الكورنيش، لا ترسم إلا الظلال جاعلة من الأشياء الحقيقية وهماً، أو شبيهة بالوهم، تظهر وتختفي حتى تحددها نتوءاتها، سناماتها، بروزاتها، فتبثها، وتصير بدلاً منها قطعاً مستقلة، أجزاء ملتصقة بعضها ببعض، تدل على أشيائها الحقيقية، على أكثرها إصراراً على الوجود، والتأثير، فتصير الموجودات مجرد أجزاء غير متشابهة، خلفها ظلام، وأمامها ظلام.

قدام سلمان مباشرة، فوق البوم، عمود عرضي ملفوف بشراع، بانت تجاعيد طياته نافرة تحت ضغط عقدة حبل قنبي، تدلى طرفه السائب على الجزء الأعلى من برميل.

تقاطع الصاريين لاح صليباً عملاقاً.. ثمة حبل يمتد عبر حلقة ركزت أعلى رأس العمود الشاقولي إلى طرف كوثل السفينة تدلت منه أعلام خيطانها تهفهف مثل مهفات على البحارة الهنود النائمين حول الصاري، وبين البراميل، وأكوام السلاسل والحبال، ممددين على حصر مبللة ربما بعرقهم، قرب أحدهم جرة فخارية يتوجها قدح معدني، له عروة تشبه عروة الجرة ذاتها. أذن من معدن وأخرى من فخار، تستمعان إلى شخير البحارة وزفيرهم. قعد سلمان، راقب الأجساد، عيونهم، أحلامهم الطائشة مثلتها حركاتهم: واحد وضع يده بين فخذيه، مطوياً على نفسه، وآخر فتح فاه ومد يديه جنبه، فارجاً ساقيه، وثالث دس يديه تحت رأسه مثل طفل ينام هادئاً.

ورابع شعره (كلبدوني)[1]، ينضح دهناً، يحك جلده وأنفه ثم ينقلب على جنبه، مرتبكاً يقلقه كابوس جاثم، يتمتم بكلمات متقطعة ثم يشخر، أساوره النحاسية، ترن مع تقلبه وآخرون فصّلهم سلمان، ميزهم ورصدهم: طوق قطيفي يعقده حجر اسطواني منسرب تحت جوزة رقبة مرتعشة، وزرة مخططة يلمها حضن شهواني، قدم فوق ذيل قلس، وأصابع كف تدهنها الرطوبة والحنّاء، نقطة عرق تسيح بين شعرات صدر مضطرب الأنفاس، عيون نصف مفتوحة وأخرى مفتوحة تماماً تنظر إلى الأحلام تحت سماء القيظ والرطوبة، إلى نمور فوق ظهور جواميس، وقصور أبوابها عقيق ونساء فروجهن حليقة، يؤرجها دهن الزعفران، وأشجار أوراقها وجوه الحبيبات، أطياف رجال، أشباه أطفال، وورود بين الغيوم، تبحث الأعين المفتوحة عن الأطياف... تدمع عين، يسيل خط من دمع إلى شفتين تنمان عن تكشيرة غيمية، تكشيرة رؤى سالفات وحظ عاثر، عبر جذاذات شبجيات الضوء المنبثق عن الأشياء نفسها أو يلوح هكذا، نور الأشياء الخفي، الدال على وجودها: أكياس الخيش المصفوفة، معقودة مثل رؤوس الفجل، وصفيحة يلصف غطاؤها المعقوف (غطاؤها فقط)، تدويرات البراميل تتوامض أضلاعها الأمامية (الأمامية منها فقط)، حدائد تعكس حلقاتها جوفها المفصص، إطارات كاوتشوك تدوّر العتمة، تدويرة أعتم وأحلك دورات قرصية، تجعل الظلام حولها أبهت كأنها تمص الظلال، اناء جوفه سائل مرقي ما زال رقراقاً بفعل الحرارة، بكرات حزوزها مخططة بآثار حبل سلكي.

---

(١) كلبدوني: لون حنائي.

أتـاحت العـلامـات لسلمـان أن يحـزم أمره: الظلال حدود، وأقراص الظلام دكات، الأجساد موانع، وصليب الصاري فاصل الاجتيـاز.. إذن رؤوس الفجل ستكون من نصيبه، تشيله اليها ألوان روائـح حريّفية بيتية، نسوية، حدائقية... روائح الزعفران وحبة الحلوة والبهارات والهيل...

تجاوز الأجساد ـ الموانع، الصليب ـ الفاصل، وأقراص دكات الظلام.. تحسس العقد الفجلية لأكياس الخيش. شمها. لا: هذه حبة حلوة، شم الأخرى، هذه نومي بصرة، أصغر الأكياس أثمنها، أين هو؟ بين كيسـين كبـيرين، فوق (حلانة)[٢] التمر، دس يده، سحب كيساً، عالج عقدته، فكها، رائحة الهيل أهاجته، ما ألذها! رائحة عطر سماوي، فتح كيسه النايلون المندى خارجه، ملأه هيلاً ثم أعاد شوال الهيل إلى مكانه. بعد أن عقده جيداً ثم رجع مجتازاً الأقراص، والدكات والأجساد ـ الموانع شبك يده اليمنى بالحبل السلالي، منزلقاً صوب الشط، أبقى كفه الأيسر فوق سطح الماء حاملاً كيس الهيل النايلوني، سابحاً بالأيمن إلى شاطىء الكورنيش.

السمـاء حالكة، قريبة، يحرقها لهيب الشرجي، الشط صامت لا يبيح أسراره، تفجر تواً ضباباً حاراً، لا هواء، رطوبة فقط وبخار ضبـابي شائـط... أضواء الكورنيش ذابلة، تسفح بقعاً ضوئية ندية، أسفل أعمدتها، كان الشارع مبلولاً، وكأن السماء أمطرت تواً.

---

(٢) الحلانة: القفة المحشوة تمراً. وهي من الدارجة العراقية.

الأشجـار تعـرق، أوراقها تعرق، جذوعها مصمغة بالرطوبة، الأجسـاد العـارية النائمة على سطوح البيوت[٣]، تفز بين لحظة وأخـرى، تمسح الدبق عن وجوهها، وآباطها، ثم تعود، تنام على أفرشتها الرطبة، تتنفس الهواء المائي. تنقبض صدورها، تسب، تدخن، تستيقظ ولربما حتى الصباح.

الشرجي يأتي بالكوابيس، بأحلام الماء المرعبة، يدخل السمكات عبر الأنوف، أو يغرق الأجساد في البحار المظلمات، فتلتهم القلوب الكواسج والحيات.. ضيق... ضيق يجثم على الصدور، يرمضها. نافذة الراقصة تفتح، لكنها دون ضياء، تطل الراقصة على الشارع تود لو تلقي نفسها اليه، تفح: ما الذي أتى بي إلى البصرة؟ سلمان يهرول صوب كازينو بدر، بعد ارتدائه ملابسه، يهدأ ثم يمشي قلقاً موسقـاً بحمله الثمين. تراه الراقصة، تبصق الهواء، تقول شيئاً غامضاً ربما تلعن أهالي البصرة.

قبل لحظات، أمام سالم نو كان قد مرق شبح سلمان العبد، اعتدل سالم من وقعته.. خيل إليه أن شجرات اليوكالبتوس تركض خلف الزنجي، والشـارع يتـراجع إلى الخلف ساحباً بقع النور الزئبقية، ومسناة الشط تعلو ثم تنخفض متموجة تموجات مائية، صعد الشط إلى الجرف، علا، هاج وماج. سد العالم قدامه، جدار الماء. مسح عرق وجهه بكم دشداشته تجشأ.. همس:

ـ سيأتي الشط إلى هنا وتغرق البصرة، لتغرق
ما شأني، سأسبح، يموتون.. أفضل..

(٣) اعتاد العراقيون النوم على سطوح بيوتهم، صيفاً.

كلما رحلت الشياطين ارتاحت الملائكة.

غنى، قطعت أغنيته شهقات بكائه وفواقه، سال لعابه ومخاطه على شوكات لحيته.

الأفندي.. الأفندي.. الله يخلي صبري[٤]
صندوق أمين البصرة.. صبري الأفندي

فواق، وبكاء، مسح دموعه قال: ستغرق البصرة، ثم واصل لحنه الأجش:

عليهم.. عليهم ذبني عليهم
يا الله يمجري الماي ذبني عليهم

توقف. حدج الماء الفوار المتجبر، العالي كسد يطوقه، الشط يطغي، المسناة تغرقها أمواج متلاطمة، السفن تتأرجح، متأهبة للإبحار على الشارع، حوت ضخم أخرج رأسه من الماء خزره، يوشك أن يوقع به شراً. أغمض سالم عينيه صارخاً صرخة مبحوحة، منذرة، مرعوبة: أنا سأسبح..

يا الله يمجري الماي ذبني عليهم
من أيديهم.. من أيديهم رحنه
من أيديهم.. ما تنفع الحسرات
رحنه من أيديهم...

تخوع في شهقات متواصلة. انطبعت بطنه على عموده الفقري.

(٤) أغنية عراقية قديمة تغنيها صديقة الملاية.

مال جرمه إلى أمام. سائل حار صعد إلى سقف حلقه. لسانه مر. تقيأ.. آع.. آع.. آع. فاضت معدته سائلاً أخضر، محبباً ببزر وبقايا خيار، سائلاً لبنياً مخضراً.. آع.. آع.. آع. تقيأ داخله، سال بوله بين فخذيه. صارت بطنه خفيفة. ضرط، أضحى شعوره مريحاً ازاءها. الحوت يفتح شدقيه عيناه مزغبتان ونافورته تطلق ماءها إلى السماء. حيات الماء تسعى نحوه، أبحرت المراكب على الرصيف، صوب السراجي. البيوت عائمة، خيوط البول تنمل ساقيه، جعلته يخاف.. ظن الشط يتسلق فخذيه. يجب أن يسبح وإلا سيغرق! حرك يديه سابحاً في الرطوبة والظلام، سابحاً في الفراغ، صرخ بالبيوت: آخر إنذار، عليكم بالقوارب ومن يتقن العوم فليلحقني. يا أهالي البصرة، يا أيها النيام إن لم تستيقظوا ستشبعون نوماً إلى الأبد.

بوله مخاضة يخوضها، كومة القيء أمامه جزيرة مخربشة على بلل الاسفلت. وقف عليها. طين الجزيرة يحتضن قدميه. صرخ: تعالوا إلى جزيرتي أيها الأشقياء. تعالوا إلى جزيرة سالم نو.

التفتت الراقصة حيث الصراخ، شلها الرعب قالت: «إنهم يذبحون أحداً. الناس يذبحون بعضهم البعض من الحر». اقتعدت فراشها يائسة، يسكنها رعب مجنون، تمتمت ما الذي أتى بي إلى البصرة.. قتلة، سراق، لصوص يا الهي سأوقظ صاحب الفندق. أشعلت سيجارتها. انقطع الصراخ.

أنصتت إلى سكون الشارع.. ذراعان مشعرتان طوقتاها. الشعر يلمس جلد بطنها، وثدييها، أصابع دبقة تنز صمغاً على فخذيها وعجيزتها وكسّها.. الليل مفزع يشويها بحرارته، وضعت

كفيها في حجرها. سيجارتها تنفخ ضجرها.. الذراعان تنسلان إلى ما بين فخذيها.. الدبق يلوث عانتها وفرجها.

الليل يؤلمها سيغتصبونها. ناست بظهرها، تمددت على الفراش، شبكت ذراعيها على وجهها ،لا تريد أن ترى، أن تسمع، أن تحس. ثم صرخت، دوى الظلام، وارتج سكون الأبواب.

ثمة ناس يركضون أسفلها: اصطفاق شبابيك، طبطبة قباقب، شذرات كلمات، نداءات، أصوات أسماء، الشارع هامد، والليل يشوي النيام بحرارة الشرجي الهابطة كغضب سماوي. الأشجار والبيوت والمراكب ظلت على حالها، غير مبالية، تمتص مساماتها الرطوبة باسفنجة سكونها ووحدتها.

وقع سالم. ارتجت الأرض ـ ظنها حين تناوشته ـ زحف صوب برغش وبق وخنافس دائرة الضوء الشحيحة. تصورها، أهالي البصرة يفرقون. أبعد الخنافس والحشرات بكفه المرتعشة خزر المصباح: أشرقت الشمس على ساحل أمانه: شمس بيضاء لاصفة. رفع ذراعيه إلى الشمس ـ المصباح. جمع الحشرات، حملها على تشبيكة أصابعه إلى صدره. وقف. بحلق في المصباح. ثم طش الحشرات عالياً صارخاً بالشمس الكهربائية: اذهبوا فأنتم الناجون.

تجاسد وجهه مع الضياء، خبط السكون شيءٌ تكسر، طقطق منفطراً. انفلع. لاح شرخ فظيع في وجه سالم. فك الشق جبهته محطماً أنفه وأسنانه وعظام وجنتيه. بدا كأنه شطر بضربة بلطة حادة، ثم ما لبث الجزء الأيمن من الوجه أن سقط أرضاً، متناثراً

كسراً رنت وتطايرت كشظايا الزجاج، شظايا ماسية، تعكس زواياها البلورية، وجوهاً.. وجوه بشر.. نساء وأطفال وشيوخ. سفناً وجزراً وسجوناً وأنصاباً، ومآذن. عادت الطقطقة إلى لوح الجسد الزجاجي، تُشقِّق الأجزاء. الأعضاء تنشرخ، تتفطر انشطارات زجاجية، ما فتئت وانفكت ذراعه اليمنى، وخصره حتى أعلى فخذه الأيمن، ثم تبعثرت قطعاً كريستالية لماعة على الاسفلت عاكسة وجوهاً ومدناً وأياماً ومباني وعيوناً وكلمات...

الجسد يتحطم والعظام تنشطر خطوطاً حادة، انفصلت الأذن اليسرى، هوت خفيفة، انفلش الجانب الأيسر من الرأس، مال معه الجذع الأيسر العلوي المصدع وتفتت هاوياً كسراً، صغيرة، كسراً بدا تلونها كصندوق الولايات، ثم تداعت الساقان برنة زجاجية هائلة، أحالت التلوين إلى حطام بلوري لا يعكس سوى الطرق والأرصفة، وأرضيات المباني، والأقبية، ومواطىء المزابل، وأسطح السفن، وأسوار السجون.

كوماً زجاجياً كريستالياً، نثاراً ماسياً، صارت الآن، بقايا سالم نو.

الهشيم الماسي يلصف، عاكساً بروقه على شجرة اليوكالبتوس الغارقة، على المراكب المبحرة في الشوارع بله في عيني الحوت الجامح صوت البيوت. الماء يطغي على ركام البلورات المتناثرة اللماعة: ركام السنين المجنونة: يغرقها الفيضان، يغرق عالم سالم نو الكريستالي بكل تفاصيله، ليبقى الليل محدقاً بذهول، في الشط الطافي، على دهشة المدينة، التي أيقظها الحر، والدبق، والكوابيس.

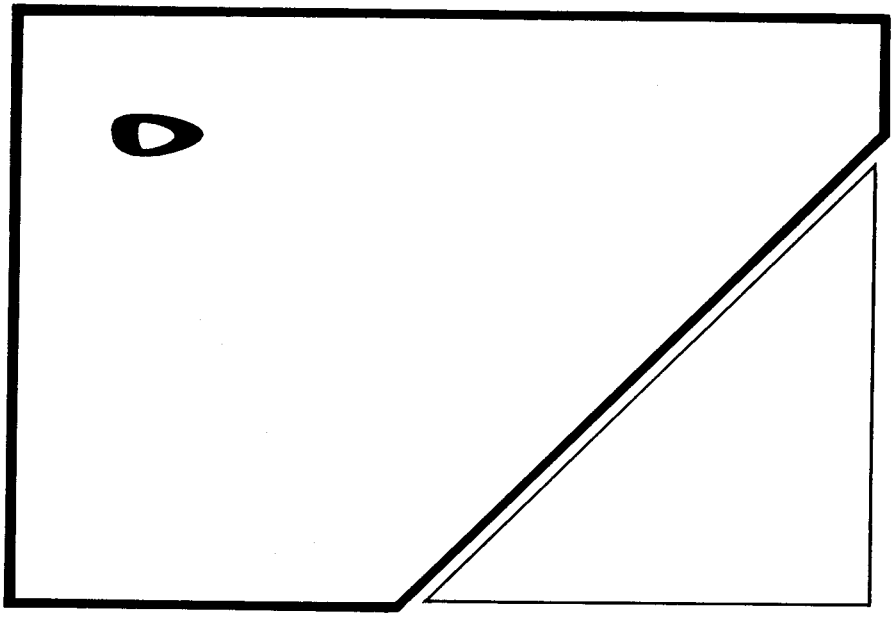

شمس حزيران تحرق البصرة العتيقة، تفور الشناشيل، الحرارة المنسكبة عليها، تلمّع صقال خشب الأبواب الصاجي الهرم، ببريق يغشي العيون، وشط العشار الأخضر مرمد الماء، تحوم فوقه ذبابات دائخة ورعّاشات خبلها الحر، وبخار النبيتات.

لملم كتّاب العرائض أوراقهم وشمسياتهم المنصوبة تحت أعمدة باب محكمة البصرة، وانسلوا داخل أروقة المحكمة المظلمة هرباً من جحيم الشمس.

رواد مقهى ـ السيمر ـ الكائنة قبالة المحكمة عقدوا مناديل بيضاً مبللة خلف آذانهم، ماسحين العرق عن جباههم وشعورهم، أمامهم مكعبات الدومينو، مصفوفة على الطاولات يخزرونها مفكرين باحتيالات نهاية اللعبة. لا يتكلمون، لا يهمسون فلا يسمع سوى ضرب قطع الدومينو وأزيز المراوح يشخط الهدوء بالملل ويكبت الانفعال، وقد ينفجر السكون مفرقعاً مسبات وشتائم ما تلبث أن تتحول إلى همس ثم صمت.

أصحاب الدكاكين المحاذية للمقهى يستلقون على ظهورهم، يسفح وجوههم هواءٌ حارٌ: هواء مراوح منضدية سود، خدرين،

كانوا يتحركون بخمول، يتحسسون ظهورهم المبلولة، أو يعصرون شعورهم بمناديل بدت كأنها غسلت تواً، ثم يعودون إلى تحديقتهم البلهاء.

السمـــاء جمـــرة، الأرض شواء، الاسفلت سائـــح، شجـرات الصفصـاف واليوكالبتوس على ضفاف شط العشار تلقي ظلالاً. تبقعهـا بؤر شمسية، تكاد تثقب الماء بمخرزها الحراري. سيارة أو سيـارتـان تعبـران جسر المحكمة. أقدام هاربة تخلف الجسر الأخضر متوجهة صوب بقايا جسر (الهندو).. لا أحد يذكره سوى العجـائز، ذلك الجسر: السيك و (الكركة)[1]. بنوه ورفعوه بحبال القنب ثم توجهـوا إلى القـرنة والشعيبة ليموتوا برصاص بنادق الشيشخانة والبرنو.

جسد أبيض، أشقر، أزرق العينين يرتدي سروالاً قصيراً، جاك اسمه أو سميث، أو جون، أو كلارك يزين قبعته المفلطحة شعار الامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس. يتحدث بعصبية، يقول كلمـات مبتـورة آمـرة، قاطعـة واثقة، تزوغ عيناه إلى العراقيين الجـائلين خلف أشجـار النخيـل، يأمـر الكركه: ابنوا هنا شدوا الحبـال، ارفعـوا البكـرات، احفروا الضفة هناك، سدوا الشط: جغـرافيا بيضاء: عمران الأناس الشقر، يشيدون حضارتهم ثم يغيبـون مخلفين بقعاً دموية على حجارتها، وجلوداً مسلوخة على أساساتها، يتنقلون كانوا كالاميبيا من مكان إلى آخر، عبر أجمات المستنقعـات، بين كثبـان الصحـارى، فوق الأنهار، في الوديان،

(١) الكركة: كنية أطلقها العراقيون على الهنود الذين جندهم الجيش البريطاني أيام احتلال العراق.

ومجـاهيل الآماد السبخة، يمدون الحديد على ارض من العظام والمفـاصـل والشفـاه والعيـون، يفتضـون بكـارتها ويوشمونها بـ «مـمـلكـة بريـطانيـا/١٩١٧، من هنـا مر الجيش الملكي البـريـطاني»، طاوياً بقـاع ما بين النهـرين يزينهـا بالعمامات والوزرات الهندية، وصفائح النفط، وعلب سجائر (سيلر)، وسردين مقـدونيا ولعاب وبراز وبول ودم وجثث وشهوة جامحة اغتصبت حتى بغال الجر، وبقرات الأهلين.

من هنـا مر (طاوزنـد)[٢]، من البصرة حتى الكـويت، ليلاقي مصيره أسيراً، بعد حصار مضنٍ، حتى أكل وجنده الكلاب والقطط نيئـة. واليه مضى (لورنس العرب)، تسربله عباءة عراقية، يسأل ويتذوق التمور حاملاً كيساً يرنّ بالذهب وخنجراً مسموماً وشفاهاً لواطيـة، ماضياً كان إلى أنور باشا التركي كي يشتريه، أو يقتله بالسم، ولكنـه عاد تلف خيبتـه عباءته المقصبة، متفحصاً تمور البصرة ثانية، تخلب لبّه نباتات الكاط والشمبلان المستنقعية، وهو يتمتم: سحـر، خرافة، وزورقه ينساب به... هناك عند تضاعيف نقطة مجهولة اختفى فجأة، غيبه غبار البصرة، مع عقاله النجدي ومونولوجاته الذاهلة المندهشة.

اقتلوا الكفار أبيدوا أعداء الله والاسلام، أجساد سمر تسبح، سطح الماء فقاعات، النخيل يغير مواقعه: علاماته نار ورماد، الرمل يشيـل حبـاتـه على جياد الريح، والريح بارود وصدى رصاص، جسـور تحتهـا دشـاديش، النفـوس عطشى للقتال، المستنقعات

(٢) طاوزند: الجنرال البريطاني الذي حاصر الجيش التركي قواته عند تخوم بلدة الكوت ابان احتلال البريطانيين العراق مطلع هذا القرن.

تزرعها عيون حمر تهوى الانتقام لذلها، الألسنة تلهج «هيهات منا الذلة».. تتطلع السلاحف وطيور الخضيري اليها، تنعق صاخبة مع الصراخ، الأيادي دم، الرجال سود الوجوه من القهر والغضب: بناتكم أيها الرجال. نساؤكم. العمامات الهندية تفح حقداً.

الأصوات تختلط: أُحْرَقوا القرآن، أحرقهم الله بنار جهنم، تشب النار في الداكير، في مستودعات الشعيبة[٣]، في محطة سكك حديد (كوت الحجاج)، في مراسي (الماركيل)[٤] مركب (فاير فلاي)، يتفجر، يضيء أمواه شط العرب، ورشاشات (مترلز)، ما برحت تلعلع في ثكنة محلة مقام علي، الكركة يتلافون ضربات (المكاوير)[٥]، بأخماص بنادق المارتيني، نزع الثوار كوفياتهم عقروا أرجلهم وقاوموا..

تناثر الشعر الأشقر على دكة مقهى منعزل في سوق الهنود، فاحت روائح الخيول المبقورة البطون، واندلقت أمعاء امرأة، تلبس قبعة مريّشة، فاختلطت أحشاؤها بريش قبعتها، ودانتيل ثوبها الخفيف. استلقى جنبها رجل شُقَّت بطنه بسكين بدائية، قبعته العالية تدحرجت بعيداً عنه، ووجهه مرعوب من ميتته المفاجئة، فمه ما زال مفتوحاً على صرخة بترت كأنها تريد ، تنادي ضباب مدينته البعيدة، شوقاً وحنيناً. دنا منه كلب، لعق دمه. دنت منه كلاب، نهشت أمعاء المرأة الدانتيلية. صرخ عجوز هارب من محلة المعصرة

---

(٣) الشعيبة: منطقة صحراوية في البصرة اتخذها الجيش البريطاني قاعدة انطلاق عسكرية لحملاته.

(٤) الماركيل: مرسى للسفن على شط العرب.

(٥) المكاوير: مفردها مكوار، سلاح بدائي عبارة عن عصا تتوجها كتلة قير يابس.

(كلي يا كلاب البصرة لحم الكفرة)، ثم وقف وهوّس (جا يبلعنا وغص بينا)، ما فتئت أن بلعته غابات النخيل التي لا يجازف أحد بالدخول إليها، إلا إذا كان يريد مواجهة الضباع والذئاب، وحيوانات (القرطة)[٦]، الوحشية.

الشمس جمرة، الأجساد شواء، الجسد الأبيض ـ يمسح العرق عن صدره، صوته واثق، كلماته قاطعة..

هندي يثبت وتداً وهو يبتسم، وآخر يشد حبلاً، جمال بركت قرب الجسر محملة خشباً وحبالاً. هنود عراة يغوصون في الطين يثبتون دعائم الجسر. الرجل الأبيض يرفع وجهه إلى السماء يلعنها نافخاً كلماته: ستموتون بالكليرة، جس ذراعه حيث زرقته ممرضة انجليزية ضاجعها قبل مغادرته مستشفى (الصبخة الكبيرة).

قال الأبيض: ستموتون بالكليرة، أما أنا فسآخذ ترياقاً ضد الطاعون. أمراض استوائية.. أنت أيها الكلب الهندي لماذا تبتسم؟ فرقع سوطه كأنه يلطع الهواء، الرجل الأبيض يسيح تحت الشمس، يموع الرأس، تمحى معالمه، يستحيل كرة شحم وعظام، يترجرج الكتفان على شكل قطرات شحمية تتزلق كجذاذات شمعة مشتعلة، ثم يذوب الجسد بأكمله، متفقعاً كتلة دهنية بيضاء. رحل البناة لحظة اكتمال جسر الهندو، اختفوا في الماء وبراري وغابات البصرة، قوضت الشمس دعائم الجسر، تشققت الحبال وانفلعت،

---

(٦) القرطة: حيوان نسجت حوله الأساطير، أكبر من قط وأصغر من كلب، أبيض اللون يرتاد المقابر، ويقرط عظام الموتى لذا سماه فلاحو جنوب العراق بالقرطة، ويقال انه يكره الانسان، حتى إذا رآه مرغ نفسه بالتراب، غيظاً وحقداً، متحيناً الفرصة للانقضاض على رقبته.

مضى زمن باهت قرضته فكوك النسيان وأمحلت السنون البائدة.. أصبح حكاية عجائز ثرثارات يتذكرن ذلك الجسر بعدما هوى كشيخ مات وحيداً، ما دلت عليه سوى دعائم مهملة، وحفر سكنتها ثعابين الماء..

الوجوه، العمامات، الوزر، السوط، الشحم، شعار الامبراطورية، كلها تهوّم في الفضاء، سائبة، تقوم الجمال من بركتها، ترحل، تقترب القرطة الخبيثة. تتجمع وحوش الغاب: ضباع، ذئاب، بنات آوى، مهتاجة تتراكض وراء الوجوه الشبحية... تلوك القرطة حبال الجسر المهترئة الملطخة بعرق البشر، تمجها، تهرع إلى كرنفال الحيوانات صوب الغابات العذرية، والأدغال التي لم تر الشمس، خلف مقابر (أم اسكندر)، حتى نهايات البراري، التي لا تحدها حدود سوى المجاهيل المظلمة والنداءات الغريبة وحفيف أجنحة النسور المحلقة التي تطارد ضعاف الثعابين الخائفة.

الوجوه تتلاشى. الأجساد تتبخر، كتل الخشب تحترق، تستحيل دخاناً، الحيوانات تلوذ بغاباتها، الماء يرق، وثمة وهجة قاسية تكسو صفحته أبداً. وهجة شمسية لا ترحم. تذوّب. تمتص، تحرق تعد للعالم أسماء ناس غابوا ويغيبون وسيغيبون حتى يلفهم النسيان، فيأكل الغبار أسماءهم، وأشكالهم على الطرقات المتربة والجادات المنعزلة، والأزقة الغائصة في رحم المدينة والشرفات المتعرقة الملولة.

الشمس تعتز بقوتها على الخلائق إذا ما تذيبهم وتعجنهم بعرقهم ودمهم وولعهم الجياش للاستحواذ أو الخلاص، ثم تركنهم إلى مملكة أميرها منسي وأسوارها غبار.

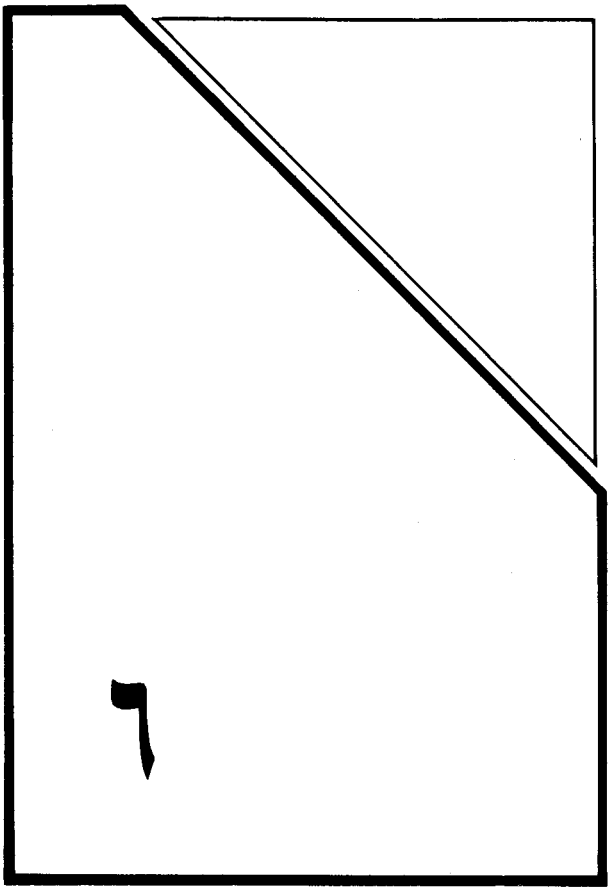
٦

جسور، عند كل بيت جسر، أمام بابه، أسفل شنشوله، جسور للبـاشـوات، لبيـوتهم الملوكيـة.. يعزلون أنفسهم متى يريدون، مترفعين، مستترين.

كان ذلك منذ عهد مضى، من يوم خميس غابر، من سنة لم تدون لدى (الكتبـدارية)[1]، ومؤرخي القصر الملكي، حينما برق قرص أحمر دموي كالكرز يشع عبر شباك نصف مفتوح، من جوف عتمة الدار العلويـة. أطل رأس شبكتـه خروم النافذة، بان وكأنه نبتة مزروعة، متشعبة، ملتصقة بالخشب والأسياخ.

حدقت عين الرأس.. عين حمراء كقرصٍ دامٍ تموجه بحيرة بنية تعرشها عروق دم بين جفنين أسودين هائلين ورموش طويلة غليظة الزغب . العين تدق تحديقتها في ذلك الصخب المعهود كل خميس على امتداد جادة الصبخة الكبيرة، حذاء الشط.

سيل من الناس يلبسون الدشاديش والعقل وأفندية يعتمرون

---

(١) الكتبدارية: أعجمية وتعني الكتبة.

«السـدارة»[٢]، يتقدمهم رجال دين، عمائهم بيض وسود، حولهم صبيان يشهرون أعلاماً خضراً وسوداً وعبيد يهزون مراوح الريش على راكبي الخيول، مع قرع الطبول واطلاقات البنادق والهلاهل[٣]، وآخرون يسوسون خيولاً كحلا تجر عربات موسقة بأقفاص كلاب الصيد المسعورة.

أبواق تبوّق وأسلحة تقعقع، ومنادٍ ينادي، وصنوج وخبب خيل، ومزامير تزمّر، ولصف يوجع العين، لصف الذهب الران على حجارة الجـادة، لصف المـوكب الملكي الذهبي: موكب الملك ضيف باشا البصرة العتيد (حامد النقيب).. كان الناس ينثرون (الواهلية)[٤]، وأغصان الياس، من شرفات الشناشيل، على طول شط العشار من محلة (البـاشا) حتى (السيمر)[٥]، فيما كان الأطفال يتراكضون حول الموكب يلمون قطع الحلوى، وما ينثره الملك والباشا من ليرات، فرحين بالعيد، بمقدمهما، بعودتهما من رحلتهما الطيبة حيث كانا يصطادان الغزلان والوحوش، في براري البصرة.

بوابة البصرة العتيقة كانت السيمر، منها يفد القادم إلى الصمت والهدوء، إلى حارات وأزقة، تسكنها الروائع القديمة، وأبواب تثقلها تواريخ مجهولة، وحوائط تركت الأزمان عليها آثار الهلاك القريب،

---

(٢) السدارة: غطاء رأس يعتمره الموظفون والمثقفون المسمون بالأفندية ذلك العهد.

(٣) الهلاهل: الزغاريد.

(٤) الواهلية: قطع الحلوى تنثر على الرؤوس في الأفراح دلالة الترحيب والابتهاج.

(٥) الباشا والسيمر: حارات في البصرة القديمة.

وشناشيل مائلة تكاد تهوي، كانت يوماً ما تتغنج بعطور جواري الباشوات ولساتهن السحاقية المرتعشة.

كانت تورف على ضفتي شط العشار، وسط السيمر، نخلات دانية القطوف، ذهبيات التمور، تتسلقها دوال تقبّب ضفافاً رصفت بالحجر الأبيض، حيث تتنقط مراسي زوارق وشخاتير ملونة تنوش أعلامها رحبة فضاء العصافير والحمام.

هنا جنة الأغنياء وشوارع مواكبهم ومرتع أحلامهم وغزواتهم مع (الباجيات)[٦] والشركسيات العظيمات الأرداف، إذ ما ينفذن سراً من باب غير معلن لبيت الحريم، ليلهون مع الباشوات الشيوخ.. سعادة دنسها ولع مكتوم لركوب النساء والغلمان، ليال هادئة ينامها الناس، تطمئنهم حشمة باشواتهم، وأصالة سلالاتهم العائدة إلى مراد بك الرابع. أو آل هاشم، من آل البيت كما يدعون.

* * * * *

في صمت الظلام، في دخان أفكار متاهات مشاريع الموت والحياة، في أرجوحة الوجود، أغمضت العين الكرزية الحمراء جفنها الأسود، عين داود العبد الأعور، رمشت أهداب عينه الأخرى الفارغة فزعاً. أتدفعه دواخله لفقد رأسه كما فقد عينه، هل سينتقم من الباشا الذي اتخذ زوجته خليلة له؟ أو ابنه حسيناً خادماً ينظف نعاله؟ لا يكاد يفكر بذلك اطلاقاً!

الظلام كأس مترعة خوفاً، يصلّب الغرفة يفطر سقفها عن نجوم

---

(٦) الباجيات: السحاقيات والقوادات.

دمـويـة، وأقمار مقطعة الأوصال وسدم تهيج ألماً: سماء عوراء، سماؤه المهانة!

حمـل عظامه، تقدم، تثقله أفكاره وخوفه، يجرجر قدميه نحو الباب، فتحه مارقاً إلى الرواق.. البيت ساكن والخان الجواني راكد إلّا مِنْ ركضـات خفيفـة وخشخشـات وقـرط وقـرض: فئـران أو صراصير، همهم داود همهمات بغماء، نزل السلم كأن السلالم تصعد عليه، تدوسه، ثم ترميه أسفل لسانها، المنقبض عند باب عتيق كفم عجوز. فك الفم، تلثّم بكوفيته، ركب (بلمه)[٧]، تراقص البلم تحته، اقتعد دكته، وجذف بـ (المردي)[٨]، البلم يراوح مكانه...

همهم: شلنت[٩].

أزاح طبقات نبات الشلنت الطافية، عن مقدمة الزورق وحواليه، تحررت حركته وانساب اثر دفعة قوية من (المردي) إلى وسط الماء. اطمـأن إلى ساتـر الظلام، جذف برقة، دون صوت الا من رقرقة المـويجـات، بهدوء حذر، خائف، توقف عن التجذيف تحت جسر الصبخة، حشر زورقه حد شجرة دفلى، دمدمت فوقه عربة ثم طبطبة أقـدام ذاهبـة إلى «جبل خماس»[١٠]، اندفع بخشية أكثر، خوف افتضاح أمره، سقط عليه أنوار خافتة من شبابيك الفندق الكبير.

---

(٧) البلم: الزورق الخشبي الصغير.

(٨) المردي: قصبة طويلة قاسية، تستخدم للتجذيف.

(٩) شلنت: نبات مائي يطفو على صفحات مياه أنهر البصرة.

(١٠) جبل خماس: تلة في قلب البصرة القديمة.

يمينه، ثمة ابلام مصفوفة، صرخ عليه أحدهم:

ـ هيه أيها البلّام.. أنت أين تذهب؟

جذف مسرعاً، لم يرد على المنادي، ثم رسا أسفل جسر المنديل.. كانت دار القنصلية هادئة إلا من دورية حرس ملول يتخطى أمامها. أنصت. دخل متاهات حواره المضني مدارياً امكانيات خلاصه:

إذا كانوا قد لحقوه، سيترك الزورق ويهرب من الفسحة الكائنة بين بيت باشا (المنديل) وشجرة النبق... أو. لا. سيهرع إلى أزقة (الصبخة الصغيرة)، أو.. أو.

فهو منذ اليوم الذي سرق فيه الطنافس من بيت الباشا وفقئت عينه عقاباً له، امتهن اللصوصية، وسرقة بيوت الباشوات بالذات، لا طمعاً، ولكن ثأراً، هذا شأنه اطلاقاً، انه رجل والباشوات رجال! الفارق هو أن الباشوات لا يخافون، ولا يعاقبهم أحد.

نهر العشار يضيق، يصير كائناً أصابعه أغصان، شعره اشنات، أهدابه حشائش، وبطنه ماء، النهر صديقه يدغدغه بأعشابه، ويضاحكه.....

النهر حاميه لانه أبوه، غرف منه، غسل وجهه، بعد أن أزال لثامه، آثارته حركته هذه، وقد يتعرفون على وجهه، ثم تذكر أنه بلثام أو بدونه، ستفضحه عينه العوراء، والأخرى الحمراء الكرزية، غطى سحنته تماماً بمنديل أبيض، شده خلف رأسه، وتحزّم بالكوفية، واصل تجذيفه تخطى جسر الصبخة الصغيرة، ثم جسر

السعدون، توقف مبهوراً، دفع الزورق إلى الضفة، شك (مرديه) في الطين، وجعل يتأمل، عبر، فوق، تحت جسر الغربان مشهداً لم ير مثله كأنه يحلم.

متوهجاً بالأنوار كان الجسر: أنوار المصابيح والشموع، والمشاعل، جسر من نار، وضياء، حتى بدت المياه تحته مطلية بذهب وهّاج، أو لربما أشعلوا الماء، ونوروا قاع النهر بالأضواء السحرية... كل شيء كان مشعاً: أعمدة بيوت الباشوات أسطوانات تبرق بوميضات ذبالات الشموع والفوانيس ومظلات السقوف العالية، تشرع شراشبها النورانية، كأصابع برصاء نحو السماء، مداميك الشرفات تتوجها زخارف (أم المربع)، و (زهور القناص)، تتماوجها حمرة داكنة، والسباع الجبسية المتخاصمة فوق الأبواب المفتوحة، تكسوها طبقات من لصف فسيفسائي نوراني، والأفاعي المنحوتة خسفاً على مساطر قبعات الأفاريز تتدلى حراشفها الذهبية بين وريقات الأشكال النباتية: أفاع حجرية تنط من وريقة إلى أخرى، بدوران حلزوني مدوّخ، مطارق الأبواب، نقاط نحاس سائل ملتهب، محمر، كأنه طرق تواً في كور الأفران، مطارق تفك أصابعها البرونزية، تتقلص، فتطرق وريقات العنب تحتها، تتحرك حركة سندانية لها رنين النواقيس.

كان الناس يشغلون الشبابيك والأبواب، يتحدثون، يلغطون، وثمة أطفال، تقتادهم وصيفات لبسن دشاديش بيضاً: الأطفال يلبسون (قُينات)[١١]، حمراً، يحملون سعفات صغيرات كي يدقوها

(١١) قُينات: مفردها قُينة، وهي الطربوش.

على قنطرة الجسر. الوصيفات يغنين، يستجبن لمطالب الأطفال برقة، وصبر. قافلة نوق توقفت عند مدخل الجسر، فتشها رجال الدرك والجندرمة، آخرون عبروا إلى بيت الباشا، تبعتهم نساء أثقلت رؤوسهن صواني (الكليجة والشابريون)[١٢]، وصحون ضخمة جللتها أغصان ياس، ونورتها شمعات صغيرات.. بنات أخريات يلففن بطونهن بشالات حمر، يحملن وسائد فوقها صناديق أبنوسية يحرسهن رجال مدججون بالخناجر، والسيوف والبنادق، يبحلقون في المتفرجين كمن يبغي أن يقتل، ويستبيح، وهناك بين الجسر ومدخل (محلة الباشا) وقفت الوصيفات والأطفال الفقراء، والزنوج المعتمرون طاقيات ماحلة، ورجل واحد تسربله دشداشة شامية، دكناء يضحك رافعاً عصاه بين آونة وأخرى، يحركها مع ايقاعات زنجي يرقص مجنوناً، يصفق المشاهدون له، بحركات أعنف ونطات أعلى وصرخات أوحش. دخلت وصيفة سوداء ساحة الرقص، دفعها الرجل الواحد ذو العصا، نخز رأس ضارب الطبل، علا الصوت (دم دم.. دم دم .. دم دم .. دم) أيها الطبال رقصني صرخت الوصيفة.. رقصني.. اضرب أقوى فأقوى.. استاء حامل زق الماء، ابتعد عن الحلقة، ثم اختفى عانق الزنجي الزنجية، دارت حوله، كأنها ترقص لأجله فقط، وبحركة خفيفة، خطف قطعة رقى، من يد أحدهم، تناولها الزنجي، قبّل يدها، راقت الحركة تلك لشيخ مرح، اتكأ زاوية خلف الراقصين، فدعك مؤخرة صبي شركسي بشبق وباسه.. تصارخ الدركيون، صحب أحدهم رائد قافلة الجمال المهودجة (التي كشفت تواً عن عجائب الخلق

(١٢) الكليجة والشابريون: نوعان من الحلويات الشعبية العراقية.

والبلدان)، والموسقة بنساء شفاههن مصبوغة (بالديرم)[١٣]، شعورهن تعقصها شالات حريرية، خضر، أقدامهن موشومة وسيقانهن تحليها خلاخيل فضية، يضحكن، يمسحن العرق من وجوههن، يتطلعن بلا مبالاة، نساء من بخارى وأصبهان وغرنة، وحلب والقيروان ومراكش، وأشبيلية: نساء للسمر والإنجاب والخدمة، والسلطنة، والسحاق، والقوادة، تمر القافلة الطويلة تقطع الشارع المضاء فوق سجادة كاشانية حمراء فرشت من الجسر حتى بيت الباشا المتفجر كالشهب بالأضواء.

تآنت قافلة أخرى، غامضة، همس الدركيون فيما بينهم، ثم أمروا بالكشف عن العربات، هرع أحدهم إلى بيت الباشا، وعاد مسرعاً، أَمرَ أمْراً، أحجم الراقصان عن الرقص. دق الرجل الواحد ذو العصا عينيه بأحمال العربات.

حل سكون قاتل، سكون من ينتظر وقوع السحر، أو انبثاق الجن فجأة، لتملأ الأرض زعيقاً وعزيفاً، انسحب إلى باب ثانوي في القصر حراس القافلة المتشددون المزنرون بأحزمة سلسالية تدلت منها سيوف بلا أغماد، فيما تصالبت على صدورهم خراطيش الرصاص، قبل ذلك بهنيهات هتف هاتف من مكان ما: قافلة شيخ المحمرة وعبادان، وكما ترفع الستارة عن مشهد عجيب، خلاب، غير متوقع، رفعت الستر عن موسقات العربات وطرقت الأعين أحرف ثلاثة وهاجة: ذهب.. آنية وقناديل وصوانٍ وكؤوس هدية الشيخ إلى أمير البصرة... تلألأت أحشاء التحف الذهبية، خطوطها المنقوشة

(١٣) الديرم: لحاء شجرة، ذو صبغة قرمزية، يصبغ النساء شفاههن به.

بوحدات من رسوم نباتية هندسية، أو بآيات قرآنية طُرزت كوفياً أو بأسلوب التكفيت، تتـوسطها جامات زينتها قطع رقيقة خزفية وصدفية على هيئة طيورونمور وسباع وغزلان ونسور. المشكاوات المـدهـونـة بالميناء، فاضت منها أسطر عقيقية، خرمت حوافها، وقواعدها (العز الدائم، والاقبال، وسعادة مؤبدة، ونعمة مخلدة)، وعلى جمل تستره الشراشب تناوس كرسي نحاسي، كسيت أضلاعه طبقـات الصـدف الأحمر هيئتها زخارف مروحية، ودوائر لوزية، نقشت داخلهاآيتان قرآنيتان: (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك)، و (الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح..).

كرسي قوائمه صولجانات تخططها عبارات مملوكية (عز لمولانا الأمير ناصر الدنيا والدين عز نصره)..

قال داود الأعور لنفسه مبهوراً: هنا حياتي أو مماتي الساعة أموت أو ألج دار الآخرة.

شد زورقه إلى (تكمة)[١٤]، خشبية من بقايا بيت مهدوم، صعد المسنـاة الحجـريـة، مخلفـاً كرنفال الأضواء وراءه، وارته أزقة الجـادة.. أضحت الأضواء بعيدة الآن، الضجة خفت، الحارات خالية، عدا بعض النسوة تغشيهن عباءاتهن، يفتحن الشبابيك بين لحظة وأخرى، يلقين نظرة على المارق ثم يغلقنها، حاذى الحوائط، وانحـرف يميناً، واصل حتى فسحة (البراحة)، الدكاكين مقفلة،

(١٤) تكم: في الدارجـة العراقية، وتعني الأعمدة الخشبية التي يستند إليها سقف البيت، وشرفاته.

جامـع أبو (منارتين)، مغلق أيضاً، جلس عند دكته، تساءل لماذا استخـدم الزورق ولم يقـطع الجادات مشياً إلى الجامع؟ آخ لو أمسكوه هناك في الشط، لاطعموا الضفادع والسراطين لحم لسانه، وخصيتيه.. حسنٌ، ارتاح لتصرفه، الطرق مسدودة مراقبة، والدرك والناس في كل مكان.. شد لثامه المنديلي جيداً، حدّث نفسه: أسرع يا داود فالقافلة ستدخل القصر بين آونة وأخرى ويفوتك نصيبك منها، نصيبك في الحياة والفناء.. نزع دشداشته: بان تحتها ثوب نسائي، ها هو الآن مجرد فتاة ريفية هتف بها الفضول للفرجة على الاحتفال احتواها الخجل، فأخفت وجهها، خبأ دشداشته داخل روشنة عالية في الرواق المؤدي إلى باب الجامع، هرول صوب جادة (محلة البـاشـا) لحقته الأزقة وقبل أن يصل أطرافها، قريباً من الجسر تسمّـر، عاين الكـرنفال، سمرته، حقيقةً، عينان مخيفتان حرقتا ظهره، التفت. كان حامل زق الماء يتفحصه.. ما يهمه الآن القافلة: هذه آخر ناقة تخب على البساط الأحمر الكاشاني، تلمع فوقـه صفـائـح الذهب، لو يخـطف كأساً واحداً.. واحداً فقط.. تسـارعت ضربـات قلبـه، ارتجف جفنا عينه العوراء، بل اعتراه الارتجاف كلياً، إنه خائف سيقتلونه، ها هو يريد الموت هذه المرة، يركض يخطف كأساً، ثم يطير عبر جهة الجسر الأخرى، فينحرف ويدخل بساتين محمود، هناك سوف لن يقبض عليه الشيطان نفسه لو اجتمع مع كل انسه وجنّه، وملائكته، عمالقته وأقزامه هاروته وماروته، ياجوجه وماجوجه.

قبل أن يخطو خطواته الجريئة، خطفت بصره وهجات متتاليات لنيران تفجرت، تساقط شررها في الماء، ثم انطفأت، الظلام سورة

المكتوب.. لحظات.. تنسحب الشناشيل، تغور فلا تبين إلا مظلاتها المتوسلة، المؤشرة إلى نقطة ما سماوية.

جسر الغربان ينخسف بعد أن يتأرجح، تتوارى الشموع والمشاعل، رجال الدرك ينزلون إلى أثماد النهر، يختفون في قاعه، يتبعهم الزنوج والأطفال، والراقصون، البساط الأحمر يرتجف يتفتت، الجمال تبرك، تسيح رغوتها، الذهب ينقلب فخاراً يهبط قريباً من جسر الغربان، يتدحرج يبين خراب لا يصدق، تتضح وجوه قاسية، تغادر آخر الدرجات الطينية والخشبية إلى القاع، وجوه جامدة تنظر أمامها فقط.

النوق تذوب تبقى رغوتها، الرغوة تصير حباثات تحبو صوب الدغل النهري.... يعود القمر يتسلق السماء، يغيب وراء الغيوم، ملقياً نظرة عجلى على شنشول تخمشه خفافيش توصوص، هسيس بشري يرد، يرتد، يلامس الصمت كحفيف الستائر، من خرب الكرنفال؟ القمر يرحل، من أطفأ الأنوار؟ ماء النهر يغور! من حوّل الجمال إلى حباثات؟ الرجل الساقي يواجهه الآن، يذعر داود منه، تتناهبه كلماته الطائرة تحط على أذنيه، تدق: كل شيء باطل! باطل الأباطيل.

فاه داود الأعور، شفتاه مصفرتان، سقطت كلماته على الأرض، رنّت، ثم همدت: من أنت أيها الرجل، أيها الساقي الأسود؟ ردت العينان: أنا الخضر..

تلوت الكلمات الملقاة أرضاً، الممرغة بالتراب، كأنها تحيا وتموت وتتحول:

وماذا تريد؟ كيف قمت؟ أنت الولي؟

باطنا العينين شفتان تسألان: ألست تحلم؟

حبت أسئلة داود، وقعت في النهر، فسمع خبطها.. أنا أحلم.. أحلم يا زوجتي بدريـة، ويـا ابني حسـين، تنـدت جبهته عرقاً، ارتجفت مقلتـه، كست عينـه الكـرزية سحابة سوداء، واختض جسده... نضت عنه بدرية ثيابه..

ـ ما به أبي؟

قال حسين وهو يكت الماء على الوجه المحتقن، وجه أبيه كان داود يكع مع كل رشة ويبحّ: لقد رأيت الخضر، وكلمني.. وحل الخراب، كل شيء باطل..

فركت بدرية صدره، وقلبه بزيت الزيتون، اختلج داود، حشرج، كضها وفح:

مدي يدك تحت وسادتي..

دست يدها، فأخرجت كأساً من فخار، توجه الأب إلى ابنه نابراً بصوت تكسّر هشيم مقاطع بغماء:

ـ هذا الكأس يقام عند قبري.. وأول من يرتكب
إثماً بعد موتي، هنا حيث موتي.. تخرب
البصرة.. إي تخرب.. حتى يشرب ماء في كأس
الفخار هذا.. تنجو المدينة حينها.. أشهد
أن لا اله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله،
وأن علياً ولي الله، والسلام أنا ذاهب لملاقاة ربي.

انتفض داود، تطاير جسده غباراً، وتحول بين أيدي بدرية وحسين إلى كوم تراب، قاما، عبآ التراب في كيس خيش، ودفناه على ضفة نهر العشار، أمام جسر نظران، وشدا خرقاً خضرا، على قصبة ثبتوها فوق الضريح، ثم بنى الأخيار قبة له، تهدمت فبنوا بناء متواضعاً من طين، وقالوا هنا خطا الخضر قبل أن يلتقي السيد المسيح (ما أتاه مغموم إلا فرّج الله)، وصار حسين سادناً لمقام الخضر، حيث وسعه بالتعاون مع سادة محلة (نظران). فأقاموا جناحاً لغسل الموتى، وآخر للمنبر الأسود واجباً لأيام عزاء عاشوراء، وفرشت الأرض حصراً و (بواري)[١٥]، وصبغت الشبابيك بأكف الحناء، وخبأ حسين كأس الفخار تحت المنبر، بانتظار يوم يأثم أحد الخلائق في (مقام الخضر) لتحل النبوءة وتقوم القيامة، ويحل الخراب الذي لا مرد له ولا رادع، ومرت سنون طويلة، جللت لحية حسين بالبياض وهدلت بطن الأم بدرية، حتى جاء اليوم الذي ناداها فيه ابنها، خافضاً عينيه «أحشائي تحرقني، وشهوتي تلح»... وافقته على زواجه، فأنجبت زوجته صبياً نحيلاً ملصته القابلة من فرجها، مغلفاً بكيس شفاف، بطّت الكيس اللزج، صرخ الطفل. ندهت بدرية: الله أكبر.. انه يشبه سليمان النبي.

قال حسين: ولكنه (عبد)[١٦]، انه أسود. ولد في كيس.

لنسمه سلمان العبد.

أخذت الجدة سلمان العبد، قمطته، عبرت به سبعة جسور،

---

(١٥) البواري: حصر تحاك من شرائح القصب الطري.

(١٦) عبد: زنجي في الدارجة العراقية، وسلمان العبد: سلمان الزنجي.

مررته بين قطيع خراف، دارت معه حول المقام سبع مرات، ونقّطت قماطه بالاصباغ، في سوق الصباغين، حيث رسم كل صبّاغ نقطة لون على القماش، بعدها سهرت ليلتين كاملتين تحاور الملائكة كي تكتب له عوذة تحميه من العيون، فأملوا عليها أن تكتب على ورقة زرقاء:

بسم الله الرحمن الرحيم

ولا غالب يغلب، ولا غالب يغلب الله، وكل شيء من قضاء الرب هارب، عن المشارق وعن المغارب، عن سيدنا سليمان قد رأى واسترأى في أوسع البرية من عين حمراء وعين زرقاء، فوجد عين العيون نافشة شعرها، مكشرة عن أنيابها تعوي عواء الذئاب، وتنبح نباح الكلاب، وتصهل صهيل الخيول في ظلام الليل، سألها سيدنا سليمان على من ترمين نارك وشراكك، قالت ارمي ناري وشراكي على الطفل المولود.

فقال لها: تكذبين يا عين والله لأحبسنك في قدر نحاس، وأسكب عليه الزئبق والرصاص وأغرقك في بحر غطاس، حتى لا يعود لك يا عين ملجأ ولا خلاص، قالت له: خذ عهدي وميثاقي لا بقيت آذي ولا استأذي...

قال لها: عليك بالقرآن الكريم، وانجيل عيسى، بدم الشهداء علي والحسن والحسين، بستين ملكاً نزلوا على البصرة، بحق سيدنا خاتم الأنبياء، يحمي ويشفي حامل هذا الكتاب (سلمان العبد)، المسمى باسمي من كل أذية وعين ردية، وتختفي عين الحاسد وتزول لأن الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير.

خاطت التميمة داخل كيس جلدي، وعلقتها على كتفه الأيمن، مع حجر مثلث الشكل أزرق مثقوب، ووشمت صدغه الأيمن بشامة شذرية حتى لا يصيب رأسه مرض.... وأزالت شغاف حشفة عضوه طهوراً له، احتفلوا نهاراً وليلة، ألبسوا سلمان دشداشة بيضاء شفافة، زانتها نقطة دم حيث موضع العضو المذبوح.

قبل أن يتزوج حسين، كان يسكن كوخاً قصبياً، مطلياً بالطين خلف المقام، وحينما حلت الزوجة الجديدة، بنى حسين غرفة أخرى فرشها بـ (كمبار)[١٧]، اشتراه من (سوق الهرج)[١٨]، وفانوس وصندوق رصعته المسامير، لحفظ الثياب و (كاروك)[١٩]، للطفل، ومرآة و (لكن)[٢٠]، وابريق نحاسي، وطست برونزي، كما رمم الحمام، والمرحاض، وعلق على باب البيت (المخلوع أصلاً من أحد البيوت)، نعالاً درءاً لحسد العيون، وزين غرفة زواجه بصورة تمثل (الإمام العباس) مرمياً، مبتور الساعدين، وفرسه تقتلع النبال من عينيه، والخيام تشتعل خلف القتيل تؤجج الأفق البعيد.

حينما تهرأت الصورة بفعل الرطوبة، ونهم الحشرات، ألصق عليها صورة للإمام علي بن أبي طالب، يشع وجهه نوراً معتمراً كوفية خضراء، تنسدل على كتفيه: بورتريه الإمام يستند كلياً على سيف مشطور نصفه، تحته خط خطاط كوفي مجهول (لا فتى إلا

---

(١٧) الكمبار: السجادة المحبوكة من القنب.

(١٨) سوق الهرج: أحد أشهر الأسواق في البصرة، حيث تباع السلع المستهلكة.

(١٩) الكاروك: المهد.

(٢٠) لكن: وعاء نحاسي، يستخدم لغسل الوجه واليدين.

علي لا سيف إلا ذو الفقار).. كان حسين مريضاً بالنبوءة.. كرس لهـا حياته، لذا آثر التأمل والانطواء، منزوياً هادئاً.. كان هدوءاً بليداً. لا يتكلم إلا نادراً، حتى قست عاطفته مع ترسخ عاداته بل تحجـرت أحاسيسه وباتت العقيدة عنده حياة متعصبة تكرست بديلاً عن وجوده البشري، فأضحت علاقته مع زوجته رسمية جداً، حل الاحتقـار بعـد ذلك محـل الحب، وكان يردد بعدما يواقعها (النسـاء ناقصـات عقـل ودين).. ثم يجبـرها على أن تعتذر له، وتغتسـل سبـع مرات بعـد أن يلجهـا، مما أقرفها فامتنعت عن مضـاجعتـه. أجبـرها، رفضت، فاغتصبها، بل اعتاد اغتصابها واغتصابها بعد أن يوثقها بالحبال.. كانت بدرية تلاحظ كل شيء إلا إنها لم تتدخل، يكفيها حيادها، متخفية خلف تمتماتها القرآنية، فهي حين استشارت الجن قالوا لها ان السحر باطل مع الأتقياء، وذوي النيات الطيبة، فلا تحاولي فتكفري، وتشركي، وتأثمي، فما قدر الله صائر بقدرته، إنه على كل شيء قدير.

ليلة القدر، رمضان تلك السنة قضى حسين ساعاته مصلياً، قارئاً القرآن في المقام مع جمع غفير من الصائمين، ثم انصرف كل إلى بيته إلا حسيناً بقي يسبّح، مختلياً خلوة أطمئنان وخشوع..

إن هي إلا لحظة خاطفة، قلصت الدهور، ترددت المعجزة، خارقة كونيـة، شالت الأرض، قصفت السمـاء ضوضاء صحبها صفير فتّان، انقذفت النجوم، تطاير شرر من جهنم رجم المارقين. فرقعت، انهدت قطعاً سقوف الأعالي، انقلبت أسافل هيئتها سهام أبالسة، انهمـرت الشهب وابـلاً إثـر وابـل، توهجت الكـواكب وانفجرت مقـذوفـاتها، تردد صدى صوتها الانفلاقي، واحترقت ثم تصيّرت

غباراً هطل بطيئاً، غلّل الأديم، الجمادات، الأحياء بغلالة القدم، المكنون العاصي على الموت والحياة، البقاء والفناء، لامس الهباب وجه حسين غلفه، كتّه كتاً وألبسه قناع رماد... وكأنما ذرته اللانهاية جاء من الأزل، على بساط الغيوم، رجل تلفعه عباءة، كائن مجهول، ما أحس حسين إلا والقادم، يجلس يندهه، يقول، رفقاً:

ـ استيقظ...

مسح حسين وجهه. قال: أهلاً وسهلاً.. أهلاً وسهلاً.. تمتم مزيلاً بقايا الكابوس: لا حول ولا قوة إلا بالله، لا اله إلا الله، أشهد أن محمداً عبده ورسوله.

ـ هل كنت تحلم؟ أعوذ بالله من شر الشيطان الرجيم!

ارتاح حسين لكلمات الرجل، اطمأن، انفتحت سريرته، وانبلجت أساريره، من جاثوم الحلم، عن ود وسكينة.

ـ أعتقد انني حلمت.. أعوذ بالله من شر الوسواس الخناس..

فأكمل الرجل:

ـ الذي يوسوس في صدور الناس، يالله يا ربي انصر (ملة)[٢١] محمد يا ربي يا من رفعت السماوات من غير عمد استرنا في شهر الفضل هذا..

كان الرجل، يلبس دشداشة يزنرها حزام عريض، كفّاه قاسيتان، يتكلم بهدوء، لا ينظر إلى شيء محدد، يسبح بسبحة،

---

(٢١) ملة: أعجمية وتعني أمة.

خرزها صفر، شارباه دقيقان، وسيم الطلعة، غير حليق، سعل وكأنه محرج من شيء يريد قوله، بادره حسين:

ـ نعم. أمر... خدمة..

ـ لا.. أنا عابر سبيل.. جئت اليوم من (القرنة)[٢٢] ناشداً (أبا الخصيب)[٢٣]، قلت أقضي ليلتي في المقام، خصوصاً، هذه الأيام المباركة، ثم أواصل رحلتي صباحاً.

ـ أهـلاً وسهـلاً، أهـلاً وسهـلاً، المقام بيت من بيوت الإيمان والتقوى، مأوى المؤمنين والمؤمنات.

يفرد حسين سبحته، يسحب خرزتين كل هنيهة، اثنتين يميناً.. اثنتين يساراً تبقى خرزة واحدة مفردة، عاود الفرد والضم.. ولكن كانت تتخلف تلك الخرزة كل مرة، رفع رأسه، ابتسم، وقال:

ـ خير انشاء الله..

ـ ليس هناك إلا الخير.. هذه محطة نظران؟

ـ نعم إنها نظران..

ـ لقد أوصوني ودلّوني، قالوا، بداية نظران المقام.

ـ صحيح.. ولكن من يريد (أبا الخصيب) فطريقه ليس من هنا!

ـ أعرف ذلك..

---

(٢٢) القرنة: منطقة التقاء نهري دجلة والفرات.

(٢٣) أبو الخصيب: منطقة في أقصى جنوب البصرة.

كان الرجـل غريبـاً متحفـظاً، كلمـاته غامضة، تثير الفضول والريبة، من أين أتى حقاً؟ ولماذا يريد الذهاب إلى أبي الخصيب؟ ولماذا يمر بنظران، ونظران كما يقال قعر البصرة.

بينما حسين تستغرقه وساوسه، دقت زوجه باب المقام وذكرته:

ـ السحور يا أبا سليمان.

قام. تناول الصينية من زوجه ووضعها أمام الضيف. أكلا على مهل تساءل الغريب بعد أن غسل يديه وكرع عدة جرعات من جرة الفخار.

ـ زوجتك؟

ـ نعم..

ـ يحفظها الله، ويحفظ لك ابنك.

ـ أجمعين، يا رب العالمين.

أثـار السـؤال حسينـاً، أزاح الصينيـة جانبـاً، تمـدد على (بارية)[٢٤]، جنب المنبر ونام، داعياً للضيف ليلة سعيدة.

يقـوم هو نفسه، أجزاؤه، ذواتات حسين مجتمعة، يهب، تلفه الغيوم جهمة، أديم السماء يتلبد، أثر زعيق بوق خارق، ماء شط العشار مربد، النخيل أقرع، تساقط سعفه، الضفادع تنس هاربة من بستـان (ساهي) حمراء، كأنها كرات دم مر المذاق والطيور

(٢٤) البارية: الحصيرة.

تزحف على جسر نظران كسيحة عمياء، وإذا بفارس مهيب الطلعة، يقدم على فرس صهباء، مهاميزه ذهب، كوفيته دمقس، سرجه يواقيت مرصوصة، يقف قرب حسين يقول بصوت كمن به رسيس..

ـ أنت نجس.

ثم صب فوقه سطلاً من الخراء، ارتفع بعدها الفارس، تعلق في الهواء، شَمَرَ وجهه الضوء، وجه (جعفر المعلوف) جلاد المختلسين، خافضاً شماله، رافعاً يمينه معلناً:

إن البصرة ستدك على سكانها المتجبرين، وإن الملائكة ستقهي من عزيمة من يهاجمها، سيقتلع الإعصار نخيلها، ويخرب معسكر المرأة الملعون، من بقايا ثمود... ستنهب، وتدمر مدينة الإثم والطغيان وينخر أبوابها السوس، دون رحمة، وتقوم نبوءة الخليل. يشهدها أهل الكهف، مكفرين عن ذنوبهم، يصلّون خاشعين اللهم جاز الكفار الآثمين بما أثمت أيديهم، لعلهم يفقهون.

.. يمضي الفارس، تخفيه الزوبعة.. تنقشع السماء.. تقع الشمس.. ويطلع الصباح. قعد مفزوعاً، عاين مكان الغريب. لا أحد. كشف عن كأس الفخار تحت المنبر كان مملوءاً بولاً، أخذته رجفة رعب هرع إلى البيت، لقاها وحدها، أمه (بدرية)، تهز (كاروك) سلمان العبد وترنمه:

دللول الولد يمه دللول
عدوك عليل وساكن (ألچول)[٢٥]

(٢٥) الچول: الصحراء.

دللول الولد يبني..
مثل ما ربيتك ربني

كانت صريفتها: صريفة زوجته التي هربت، فارغة، حينئذٍ تحسس القرنين اللذين نبتا على جانبي رأسه.

قال لأمه: كنت تعرفين بالأمر؟

نظرت إليه:

ـ لا.. لم أكن.. ولكنك كنت قاسياً معها يا ابني، القحبة العاهرة
دللول الولد يا عكازتي
(وريتك)[٢٦] تشيل جنازتي
نام.. نام يا عيني.. تكبر وتوفي ديني

ـ وهذا الغريب؟

ـ كان يتردد إلى المحلة. يقف قرب المخبز. أو قرب دكان علاوي القزم.

ـ وكيف لم ألاحظه؟

ـ لم تلاحظه طبعاً كان يأتي في أوقات معينة، أنا شككت به، ولكني ماانتبهت إلى ما يجري بينه وبينها: لقد خدعتني العاهرة.. القحبة الوصيفة.

ثم عاودت كالمخبولة تلح على الكاروك:

---

(٢٦) ريتك: ليتك.

(نام .. نام يا عيني
وتروح عند مراتك
وتروح وتخليني.
نام نومات العوافي
نومات الغزيل بالطرافي).

أجهشت بالبكاء، انفجرت وهي تلهج:

ـ لقد جللنا العار يا ابني.. القحبة العاهرة..
لا بد أن نرحل من نظران.

ـ إلى أين يا أمي؟

ـ (وين ما عند الله كاع)[٢٧].

ـ لا أنا سأرحل.. وإذا سألوك قولي لهم رحل وزوجته إلى (علي الشرجي)[٢٨]
ولكن لماذا زارني في المقام؟

ـ ليسخر منك ويبول في كأس الفخار.

ـ إذن كنت تعرفين.

ـ لا والله يا ابني.. ولكنها العاهرة قالت لي ذلك قبل أن ترحل نكاية بنا.

---

(٢٧) (وين ما عند الله كاع): بالعراقية وتعني (إلى أي مكان).

(٢٨) علي الشرجي: منطقة قرب مدينة العمارة العراقية، فيها مقام ديني يزوره الناس في وقت معين من السنة، وبالذات الطائفة الشيعية.

ـ ولماذا لم توقظيني؟؟

ـ البارحة أيقظتني وقالت لي: لقد بلنا في كأسكم المقدسة. لعنة الله عليه وعليك. ثم خرجت مسرعة لعنها الله. كانت هناك عربة بانتظارهما، قلت ما دام الأمر كذلك لترحل، ما كنت أعلم أن لها عشيقاً. لم أرد أن أوقظك. ما جدوى ذلك. قلت ستكون فضيحة.

أووف.. الزواج... يا ابني قسمة ونصيب واصلت والدموع تحرق موقيها:

«يمه الولد يا فص السليمان
لكطه ولكيته فوك اليشان».

عاط حسين: هكذا إذن.

توسلته عيناها، وهو ينهض؛ مسحت دموعها، انسابت ترنيماتها بوهن، ببقايا نسيس، وكأنها تخاطب حفيدها من مكان بعيد يغشيه الأثير:

«دللول عسى العوافي الك دوم
ما اتفاركك ساعة ولا يوم
دللول عدوك عليل وساكن الچول».

تمنطق خنجره، لبس عباءته، وغادر (صريفته)[٢٩]، ولم يعد ثانية إلى نظران، اختفت آثاره إلى الأبد، اندرس ذكره، وتلاشى كظلال نخلة طوتها ستر المساء.

---

(٢٩) الصريفة: البيت المبني من القصب.

٧

أوراق، أوراق طافيـة على المـاء، أو ملتصقـة بطين ضفة نهر العشـار أو مشكوكة بأغصان شجرات الدفلى، أو محشورة بين قصيبات الدغل، يهدهدها الماء وهناً، حين تهب ريح خفيفة، تندفع ولكنها تبقى تراوح في استقرارها، إن المتتبع لمجرى النهر سيرى أن الأوراق انتشرت من تحت جسر نظران، حتى بقايا جسر الهندو، وهي في دربها المائي، يلتصق بعضها بقوائم الجسور معانداً تحمل سطوره حشرات رعّـاشـة، وذبـابـات سانحـة تزن، وترز معجبة بزوارقها الورقية، التائهة.

عند جسر الهندو، توقف سلمان العبد متفحصاً الأوراق، أخذه الفضول، فهو لطالما، بحث في المزابل، والمناطق المهجورة، عن أشياء مهملة وكنوز دفينة، دون أن يعثر إلا على زجاجات خل فارغة، وعلب ودمى ممـزقـة، وثيـاب موتى، وأوراق مصفرة، يتأملها بعناية ثم يحملها إلى جدته، التي أوصته: اجلب لي كلّ كاغدٍ مهمل عتيق، إنها رسـائل الجن إلى بني البشر.. ثبت كيس الهيل في حزامه جيداً، توقف بعض الأطفال قريباً من جسر الجيش الحديدي، انتفخ زهواً، اقترب من الماء، أزعجه نصوع الكاغد، إنه جديد، لا فائدة منه،

حمل ورقة مما طفا مشمئزاً من براز الضفادع العالق بها، ثم رماها.

نظر صوب الصبية وقال:

ـ عيع..

سمع أحد الصبية يصرخ:

ـ أيها السخل هات لنا كاغداً.

ـ عيع..

تسلق الضفة وركض تجاه الصبية الذين هربوا منه وهم يصرخون:

ـ زيران.. زيران[1]...

ـ سأمسككم وأضاجعكم واحداً.. واحداً

يا أولاد القحبة.

تفل ثم واصل سيره، خلف جسر الجيش الحديدي وراءه، منتبذاً الفيء تحت الشناشيل الواطئة، المتورمة حوائطها، حبلى بثقل الطابوق والتكم. توشك أن تدلق أحشاءها بين لحظة وأخرى، في الشارع الضيق.

ما زال يفكر ببكراته التي سرقها منه محمود. طالعته واجهة السينما (ماجستي!) قال لنفسه وهو يحدج مبهوراً ذلك العملاق الذي يطوي فتاة شقراء تحت ابطه الأيسر، ويده اليمنى تلوح

(١) زيران: ما يطلقه الصبية في البصرة على الزنوج المجانين.

بسلسلة على رؤوس تعتمر خوذاً حديدية.

كانت ليلى المسترجلة صاحبة السينما، تضحك بخشونة لمداعبات (تومان) مهرج السينما وداعيتها..

كم أحب تومان وأغانيه، وعزفه على الناي بالذات حينما يعزف بأنفه. قرر أن يسأله عن محمود فهو صديقه.

اقترب منه وصاح:

ـ تومان.. تومان...

انتفض تومان الأسود صارخاً بجمهور المتحلقين الضاحكين:

ـ آخر أفلام الموسم، مغامرات، بطولات، حب، لكمات، ركلات، مضاجعات، لواط، سحاق. كل ما تريدون، تعالوا، تعالوا.. هأ هأ هأ هأ..

كركرت ليلى تأبطت ذراع تومان، ودخلا السينما.. كان سلمان متأكداً أن ساحة عمل (محمود الطبّاق)، هي سينما الشعب، أو مخبز نظران، أو موقف باصات ألونبي، وما دام الجو حاراً. فإمكانية وجوده في السينما معقولة، ولا بد أن يسأله عن بكراته، التي بدأ يقلق بشأنها. ولج باب السينما العريض شم رائحة عفونة، اندس في الزحام، تصفح الوجوه، حتى لمح محموداً الطباق، وأنشأ يراقبه، وقد كنّاه أصدقاؤه بـ (الطبّاق) لإمكانيته الخارقة على الانطباق، والالتصاق على أية مؤخرة تعجبه في أقل زحام ممكن وبعضهم قال انه أبرع طبّاق في العالم.

كان محمود بداية يرصد وجه الضحية، فإذا كان جميلاً، صبياً،

أملطاً، يدور حوله، يتأمل مؤخرته، فإذا أعجبته يبدأ تحركه وبدقة فائقة.

وقتها لحظ سلمان أن محموداً في بداية عمله، وأنه يوشك أن ينجح، إلا أن الفرصة لم تكن مؤاتية، إذ ما زالت هناك فراغات بين الصبي والجمهور، قد تتيح، خلالها، للصبي التخلص والتملص، كما تتيح للآخرين ملاحظة حركات محمود الافعوانية...

سُدت الثغرة اليمنى، انحشر محمود، مست أصابع يده اليمنى مؤخرة الصبي، واستقرت باردة، عليها، وبحركة عنيفة ـ يبدو أن الحشد في الخلف راح يضغط على شباك التذاكر ـ انطبعت أصابع محمود على الكتلة اللدنة. تحركت يده، بحذر، على رجراج الردفين، ناقلاً رجله اليمنى خطوة، فاستقر تماماً خلف الصبي والتصق به، فاركـاً أيره على مؤخرته، منتهزاً اندفاع الجمهرة عليه من خلف، بينما عيناه تنظران إلى شباك التذاكر موحية بجديتة للوصول وقطع التذكرة، حتى انه لوح باليد اليسرى صارخاً:

ـ لا تتدافعوا عيب يا جماعة...

ثم أنزلها ليثبتها عند خاصرة الصبي، مدها إلى بطنه، وضغطها بقـوة. انفرشت المؤخرة كلياً على عضوه، وفخذيه. أخذته غيبوبة لذيذة، ورأس الصبي ملتصق بصدره، حتى أوشك أن ينحني عليه ويقبّل شفتيه، ولكنه صرخ فجأة...:

ـ عيب يا جماعة لا تتدافعوا..

كان يرهن، في مضاجعة اهتزازية واقفة، لم تبن خلال اندفاعات

الجمهور إلى أمام وخلف، يميناً ويساراً.

انتظر سلمان، حتى ينتهي محمود، دار حول الصبيان والشباب المتـزاحمين، رفع رجله فوق الحاجز الحديدي بصعوبة، وأنزلها خلف محمود، الذي قضى الآن وطره تماماً من الصبي مستعجلاً الانصراف إلى فريسة أخرى، فهو لا يشبع أبداً، ولطالما تباهى بأنه يضاجع ديكاً رومياً. قرصه سلمان استدار محمود وحدّق فيه مذهولاً:

ـ ها.. سلمان.. ماذا تفعل هنا؟ تعال. تعال. نخرج.

انفلتا من الزحام، قعد محمود على دكة السينما متفحصاً أعقاب السجائر وقناني البيبسي كولا المهشمة، قال سلمان يمازحه:

ـ قواد أين بكراتي التي سرقتها؟

رد محمود متضايقاً:

ـ لقد هربت من نظران هذا الصباح! أين كنت؟

لوّح سلمان بكيس الهيل وقال:

ـ عند الهنود وقد رأيت سالم نو.. انظر، غنيمة محترمة.

ـ السرقة من الهنود ليست عيباً، أنت ستصبح لصاً محترفاً. ولكني سمعت أن سالم نو قتله صبي لواطي.

ـ لا والله رأيته، وقد كان سكران وسمعته يصرخ ويغني.

شم سلمان رائحة العرق تعط من فم محمود، الذي وقف نافضاً

دشداشته غير مبال ببقع سائله المنوي الذي يلطخ ثنايا وسطها فهو لم يتعود ارتداء ملابس داخلية، لأنها كما يقول تعيق عمله.

دنا من سلمان وهمس:

ـ لا تذهب إلى نظران، فالمحلة ملأى بالشرطة.

ـ لماذا؟

ـ صديقك ابن العلوية، علي الحمداني تطارده الشرطة في بستان ساهي.

ـ لماذا؟ وماذا فعل؟

ـ يقولون.. شيوعي.

ـ ماذا يعني شيوعي؟

ـ يعني ضد الحكومة. وما دام صديقك فقد يلقون القبض عليك.

ـ وأنت لماذا هربت؟

ـ خفت أن يلقوا القبض عليّ. بسبب جبار.

ـ جبار؟ ماذا به؟

ـ ألم تسمع بالقصة؟ ضاجعته. أهله يقولون انهم سيخبرون الشرطة. لأنني فتقت مؤخرته، كان أسته ضيقاً جداً حتى انني استخدمت السمنة لايلاج أيري فيه، مع ذلك فتق الأست.

وها اسمع. لا تذهب إلى بيت أستاذ محمد، فالشرطة تحقق معه

أيضاً. وجدوا البارحة منشورات شيوعية قالوا رماها الأستاذ في الشط.

ـ الأوراق التي بالشط؟

ـ ووجدوا بعضاً منها معلقاً على أسلاك الكهرباء، وحتى في مقام الخضر، كما لصقوا على باب بيتنا منشوراً مثلها، عليه رسم منجل ومطرقة ونجمة..

احذر لا تذهب. دع الأمور تهدأ، ثم انسل إلى بيتك.. يحققون مع كل الناس.

ـ وعلي ابن العلوية؟

ـ حاصروه في البستان فأطلق عليهم النار.

ـ عنده مسدس؟

ـ أعتقد مسدس مصطفى البحار. الدنيا مقلوبة في نظران. سألوا عنك. ولكن جدتك طردتهم فضحكوا منها لأنها قالت ان جدها وجدك هو الخضر سلام الله عليه.

ـ والأوراق من طبعها وكتبها؟

ـ يقولون علي وجماعته. كانوا يطبعونها في بستان ساهي، وقد اعترف ساهي للشرطة، وها.. قالوا ان خديجة خانم زوجة ابن ابن ابن إلى آخر جدهم المقبور حامد النقيب هي التي أرسلت الشرطة على علي.

ـ وكيف عرفت أن علياً يوزع المنشورات؟

ـ حميد السمّاك أخبرها. كان يتجسس على علي، كان يتبعه أينما يذهب.

والله أنا أخبرت علياً وقلت له، ولكن علياً ما كان يسمع كلامي. نهرني وقال لي اذهب وابحث عن مؤخرة تشبعك يا لواطي.

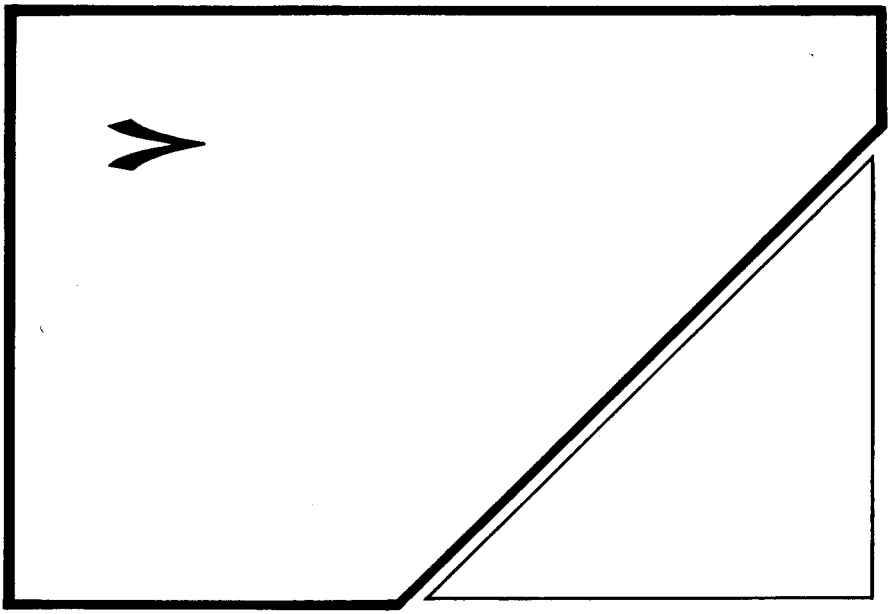

ـ أولاد عاهرة، قوادون، ماذا فعلت لكم؟ ولماذا فعلت أنا بنفسي هكذا؟ ماذا استفدت؟ من أجل من؟ لماذا؟

كان دائماً يقول لنفسه ذلك، يؤنبها متفحصاً قسمات وجهه الملوية في المرآة. أستاذ محمد يفكر دائماً بماضيه بعشرات السنين التي ولّت، فخلفته حطاماً. نقر بأصبعه على خشب الكومودينو الجالس لصقه. عاد إلى التحديق في المرآة، مرآة مدورة كبيرة، يعكس زئبقها حائط الغرفة أمامها. حيث علقت صورة صفراء قديمة لوجه شاب نحيل. بانت عليه علائم المرض: وجه الأستاذ شاباً....

درج الكومودينو يغص بأنواع الأدوية، التي اعتاد الأستاذ التهامها غب اعتقاده باصابته بأنفلونزة دائمة، أو دزنتري مزمن، أو ألم مفاصل، أو صداع نصفي، حتى انه كان يقرر كل مرة تغيير أوجاع جسده، ونقلها من عضو إلى آخر، مثلما ينقل جهاز الراديو، من الكومودينو، إلى جانب السرير حين ينام، ويعيده حين يفيق.

كانت آلامه نصف الوهميّة جزءاً من ماضيه، الذي يتلفع به على

الدوام، كانت غرفتـه، محيـط أفكـاره بجـدرانها الأربعة؛ ومدار أبصاره، صقال المرآة؛ ومستودع أحلامه المجهضة، سريره المكتظ بتـأوهاته، وأنينه طوال الليل، واستيقاظه فجراً وهو يشتم الناس جميعـاً، خلل دخـان سيجارته التي يمصّها مصاً، ثم استلقاؤه مرتخياً كسولاً دونما رغبة عنده بالعودة إلى النوم.

غير أن أفكـاره لا تطير بعيـداً ترققها أحلام زائفة، وتداعيات حاقـدة إلا حين تركه كتابه المفتوح أمامه، كتابه هَمّه، بعض من جملة اهتمـامـاته: جمهورية أفلاطون، أو أسرار الحرب العالمية الثـانيـة، أو ماركس، نيتشه، زوكوف، رومل، مونتغمري، محمد مهـدي الجـواهـري، شوبنهـاور، التوسير، لوكاتش، تروتسكي، أو كتب أخـرى تبحث في مفـاصـل جديـدة، غريبة، في الفلسفة اليونانية، أو الماركسية ،الصحيحة أو المعدّلة، وقد أثخن متونها بالملاحظات والخرابيش، والتعليقات، والمختصرات دون كلل.

فكـر الأستـاذ فيما يجب عمله الآن، قام عن المرآة، بحلق في السرير، ثم شال مصيدة الفئران بعيداً وقد تدلى منها فأر صغير مدمى الأنف، فك السلك القاسي عن قاعدة حافة المصيدة المسننة، ورمى الفـأر إلى مزبلة المـطبـخ، حدجتـه زوجتـه ثم عادت تقلي البـاذنجـان دون أن تحير جواباً. همهم سأذهب لأتفقد الطست المكهـرب. تراجع عن المطبخ إلى الحوش المكشوف، ثم رفع رأسه صوب السماء.

عاد وفـتـح باب الدرج الداخـلي، ارتقى الدرجـات. طق زر الكهـربـاء، حينهـا رفـع بابهـامه وسبابته قطة صعقها الطست الحديدي المكهرب خزر عينيها المشبوحتين. كانتا مسودتين، قال:

ـ قبضت عليك، أكلت طيرين من أجمل طيوري.

صعد إلى السطح ثم رمى القط الميت، على أكوام المزابل، خلف حائط البيت العالي.

ولج برج الطيور، راقته قوقأتها وهديلها، وخشخشتها، داخل أعشاشها المرتبة، في صفائح صدئة، صات الأستاذ نبرات مميزة، طيرية، غادرت اثرها الطيور، تبعته، رش لها الذرة، وفتات الخبز. تقافزت، رفرفت... هدلت فرحة، غادر البرج وأغلق بابه.

سطح البيت مشمس، والجو صحو، إلا أن الحرارة ما برحت شديدة والأفرشة تكاد تحترق داخل حصر تصررها. تناهت اليه أصوات رصاص، من بستان ساهي، أطل عبر (محجّر)[1] البيت إلى البستان.. رأى سعدية، منزوية خلف نخلة، تفرك فرجها بمنشفة، وهي تتأوه تحرقها الشهوة.

سعدية بنت سائق سيارة الإطفاء، تئن بلذة، تماماً مثل سيارة الاسعاف، همهم الاستاذ بحقد:

ـ ما زالوا يطاردون الأعرج. سيفهم جيداً بعد أن يتعفن في السجن، ان لا أحد يستحق العذاب والموت من أجل سعادة الناس الحقراء، هذا إذا بقي على قيد الحياة!

تفل، راقب بكل بؤبؤي عينيه سعدية، وهي تتلوى مثارة، وجهها يتندى عرقاً، ومؤخرتها ملوثة بالتراب، دغدغ الأستاذ ما بين فخذيه، حك عضوه، دق بصره بردفيها المتربين. التصق بالحائط،

---

(١) محجّر: سياج سطح البيت الحجري.

انتقض حيوانه، ضغطه على طابوق الجدار، ثم ملّسه براحة كفه اليمنى، عبر بيجامته وهو يردد...:

ـ قد يقتلون علياً الأعرج.. سيلقنونه درساً...

أنا ماذا استفدت.. ومن أجل من ولماذا؟..

آه.. آآ ه ه ه....

فزت سعدية حينما لمحت الرأس الأشيب معلقاً فوقها، غطت فخذيها بثوبها وهربت بين النخيل، تركض وراءها جديلتها، وهي تشتم الأستاذ:

ـ عجوز، مخرف، قوّاد، شاذ، لا ذمة ولا ضمير.

احتضن الأستاذ الحائط قذف سائله، ثم دفع جسده بقوة إلى الشمس. تجرحت بطنا ساقيه بنتوءات الطابوق الذي اعتلاه شبقاً.

عاد، نزل الدرج، وانكفأ في غرفته نصف المعتمة، العابقة برائحة كرات النفتالين المدسوسة بين القمصان والبناطيل المعلقة في (الكنتور)[٢]...

مستطيل الشمس المرمي عبر درفة باب الغرفة كسيف خائف، انسحب، واختفى حينما ضرب الأستاذ الدرفة برجله، وأغلقها لم يعد ينير الغرفة شيء الآن، سوى شفافة نور هلامي يشبّح المرئيات: ضوء فجري طبشوري يشق الأشياء ويفيض بهدوء وتتالٍ ورقة. وثبت الجمادات، نطّت كأموات العالم السفلي:

(٢) الكنتور: خزانة خشبية لها عدة درف، تزجج إحداها مرآة كبيرة.

السرير القديم، الكومودينو القديم، (الكنتور) القديم، المكتبة القديمة، الكتب القديمة، عتمتها الخاصة، وروحها الأنانية، المماطلة الدائمة القوة، أنشأت تبث عنفوانها، خلل الجدران، حتى استحالت مثل جوف تفاحة عافت شجرتها، وتدحرجت فوق الأوراق اليابسة، فالتفت عليها ثعابين صغيرة، امتصت رحيقها، ثم تركتها مجعدة كجلد عجوز، فك الأستاذ رتاج المرآة، ولج رواقاً منحدراً صوب قاع عميق، تلمّس الحوائط. قدماه تتحسسان الدرجات المتآكلة التي تتكسر حوافها حال تركها نازلاً أسفل، أسفل، سامعاً صوت سقوط الحجارة وراءه، تتهادى، في قعر مجهول سحيق. لتساقط الحجارة، طشيش يتلوه سكون، كأنما يغرقها ماء مستنقع ظلامي، غير مرئي.

لمح شيئاً يلمّع الظلام. انحنى عليه، حدجه.. إنها ساعة أبيه.. استطاع تمييز صورة السفينة الشراعية الأثرية، بين عقربيها، غير أن قيدومها قد امحى، فبانت مثل فيل قطع خرطومه.. ضغط على زر أعلى الساعة. حرك السفينة يميناً وشمالاً، حتى مالت وغرقت مخلفة بضعة مويجات يتيمات يترقرقن بين العقربين. دس الساعة في جيبه، وتابع نزوله، بل غوصه في بحر الظلمة ذاك.. أسفل، وأسفل.. أعمق، أعمق، والدرجات تنفلش وراءه وتتفتت، فتقطع عليه سبل العودة، تتكتل خلفه غمامات العتمة، وتدفعه حتى انهمر عليه نور ضئيل، استطاع عبره تشخيص رأسين معلقين. دقق النظر فيهما، عرفهما: إنهما الجنديان اللذان اقتادا عمّته سبية إلى أصقاع الأناضول يوم دخل الأتراك مدينة الحلة بقيادة (عاكف باشا). تذكر لحظتها، مشهداً من ليلة عيد الفطر. نمرة (الرأس المقطوع يتكلّم)، فذهل وتعجب، وقرر أن يقطع رأسه.

الرأسان الآن لم يعودا ينطقان بشيء قال لنفسه:

ـ لقد أخذا وطرهما من عمتي. برافو. كانت قحبة أصلاً.

توقفت انهيارات الدرجات الحجرية، إذ ما وصل رحبة مدخّنة بدخان أرجواني، صفت على جوانبها توابيت لصق على كعب كل تابوت، وجه صاحبه الميت..

كانوا أقرباءه وأصدقاءه، ماتوا منذ زمن بعيد، هناك في منتصف الرحبة طرحت جثة فوق صفيحة من الاسبست، مالت عنها قليلاً، فانكشف وجهها عن الشرشف الذي لفت به، كما برزت قدماها المتشققتان، أما الشرشف الأبيض أو الكفن المهترىء، فقد تكتل مطوياً بين فخذيها، سمع من يهتف به:

ـ هذه أمك يا أستاذ.

الظلمة الأرجوانية المدخّنة خلل ذلك الحمّام ـ المقبرة، تنزاح عن وجه عجوز آخر، يسيل خيط دم على جبهته، اثر ضربة ماحقة هشّمت جزءاً كبيراً من قحفه. كان عارياً، منتفخ البطن، يقتعد كرسياً من الخيزران.

ـ سأله الأستاذ:

ـ هل أنت أبي؟

ـ أنا أبوك، وهذه أمك التي عاشت من بعدي ستين عاماً، دون أن تتزوج.

ـ ولماذا لم تتزوج؟

ـ حمارة.

أعجبت الأستـاذ فصاحة أبيه، رمق أمه باحتقار، كانت ممددة، كأنها تستقبل إحدى الصبايا، في حضنها، لتساحقها.

ـ وهل ماتت لأنها غبية؟

ـ لا.. لقد ماتت في المرحاض.

ـ برافو.. ميتة خرائية.

ضحك الأب، كركر، اهتزت بطنه، المورومة، نفر الدم غزيراً على وجهه، وتجمد مثلما يتجمد مح البيض على النار.

ـ كانت تتغوط ثم ماتت.

شعر بحاجة شديدة للبكاء على أمه بسبب ميتتها الخرائية، قعد قربها، رائحة النتانة هيجت أنفه. قام من مكانه، راح يمارس بعض ما يعرف من الحركات الرياضية السويدية، ثم استمنى فوق جثمانها.

* * * * *

تأنّى سلمان العبد أمام باب بيت الأستاذ الخشبي العريض، ثم دق الجرس، كان علاّوي القزم يتحدث إلى أم خميس بتلذذ عن المطاردة العنيفة بين الشرطة وعلي الأعرج في بستان ساهي.

سمـع نتفاً من الحديث، غير أنه لم يأبه لذلك، لأنه سيسمع التفاصيل كاملة من فم الأستاذ الذي كان يزوّد علياً الأعرج بالكتب

والأوراق. تركت زوجة الأستاذ، مريم، المطبخ، وعبرت (الحوش)[٣]. وهي تنصت إلى طقطقة نعالها على (الكاشي)[٤]، الملوّث بسلوح الطيور والغبار، ثم فتحت الباب. هرع سلمان داخلاً. طارت مريم وراءه صارخة:

- إلى أين؟
- أين الأستاذ؟
- في الغرفة.
- ماذا يفعل؟
- اذهب إلى أمك أيها الزنجي ودعنا وشأننا.
- أريد أن أرى أستاذ محمد.

أمسكته وجرته من دشداشته، تفلّت من يدها. دفع باب الغرفة. شم رائحة عفونة. الأستاذ يقف وسط المرآة يفعل أشياء قبيحة.

- أستاذ محمد ماذا تفعل في المرآة؟
- أستمني في الماضي.
- لم أفهم!
- ماذا تريد؟
- هل حققت الشرطة معك؟
- لا.
- أين علاّوي الأعرج؟
- ذهب.

---

(٣) الحوش: الباحة الداخلية للبيت الشرقي في العراق..
(٤) الكاشي: البلاط.

- إلى أين؟
- إلى موسكو.
- وماذا يفعل؟
- يضاجع أمك.
- ابن القحبة، أستاذ وسخ اللسان.

٩

عبر زقاق (الصويلات)[1]، المترب، الضيق، تحت سقف سماء بعيدة، أو لاحت كذلك بسبب الحوائط الطابوقية والطينية، لبيوت باشوات عتيقة، خلف عمق الواجهة العمرانية الشكلية، حتى البساتين الوحشية المترامية، في متباعدات، وأسبار الأراضي البكر، العتية الأسرار، حيث تتقطع الصلات البشرية لتغدو أشباح سابلة عابرين يتلفتون وأيديهم على خناجرهم، حينها تصبح الأوهام والحكاية حقيقة مخيفة، يصبح للقوى الخارقة للعادة، حضور لامرئي، سوى ما يعبر عن نفسه بقوة من كوخ منعزل، أو نخلة منحنية، أو كلب ذئبي، أو فراشة عملاقة، تصالحت مع قوى الشر، فاستحكمت وتوارت بين الظلال، كامنة لكل من يلج شباك فخاخها، ووهاد أسرارها الظلامية.

يزوغ الغرباء حيناً عند نهاية الزقاق أمام لوحة مرعبة من الدروب الترابية و (الشاخات)[2] المهملة، وحشد نخلي تتموج جذوعه وسعفه ودغله، راسياً جنب قنوات وأنهر متداخلة، حتى

(١) الصويلات: زقاق في محلة نظران، في البصرة.

(٢) الشّاخة: قطعة الأرض المزروعة بين مساحات النخيل.

نهايات محلة (كوت الحجاج)، يتمتم الغريب، المار، عرضاً، بأدعية تطرد عن دربه الشياطين، قبل ولوجه كوة (المجهول) تتبعه على حين غرة أقدام ترصده، أو ترفرف فوق رأسه أجنحة، أو تنده سمعه همسات، وتلتم عليه ألوان متبدلة فتية في غمرة شباك الخضرة المحيطية، وتأخذه حيث لا يدري إلى متاهاتها الواغلة في الضياع.

هناك لا ليل يبقى ولا نهار، غير الأرض الموسومة بالوهم والظلال والضلال..... حقيقية وكاذبة، موجودة، وغائبة، أرضية وسماوية، جنة وجحيم، هناك حيث يستطيع الأشرار أن يطلقوا العنان، فيتصالحوا مع (الطنطل)[٣]، ويأتلفوا مع القرطة، ويسبحوا مع عبد الماء (هولي) واشمين على سواعدهم أسماء حبيباتهم اللواتي قتلن، أو اغتصبن، أو متن شوقاً اليهم.

إن من يسمع بهم يظنهم رجالاً من ظلال... توهموا بالحقيقة، فأصبحت الحقيقة مجرد وهم، ووجودهم مجرد حكاية: كلماتها خناجر، وختل، وبقع دماء على دغل (الشيء اسم الله)[٤]، ما تلبث أن تسود وتلحسها حية (أم سليمان).

عند بوابة الآماد، بل عند جبهتها، ينتصب بيت قصبي يسيجه دوار طيني، لا باب فيه، حتى ليحتار المرء كيف يصل إليه، غير أنه ومن جهته المطلة على نهير تأفّع عبر غابات النخيل، توصلت يد ما، حريصة على الوحدة، والانزواء أن تربط ما بين البيت ـ البوابة،

(٣) الطنطل: كائن خرافي عملاق، أبيض اللون، تماماً، يخاف الإبرة لذا حين يعبر الأهالي ليلاً منطقة مجهولة يحملون معهم ابرة وخيطاً لإرهابه.

(٤) الشيء اسم الله: نبات برّي اعتاد الأطفال في البصرة، اقتلاع باطنه وعلكه.

والأرض ـ السر بقنطرة إن هي إلا نصف جذع نخلة (برحي)[٥]، يحرسها كلب مسعور لا يعرف غير وجهين يأنس لهما: وجه سلمان العبد، ووجه الأم ـ الجدة بدرية.

وحين يتضايق سلمان من الدوران حول البساتين، كي يعبر القنطرة يتسلق سياج بيتهم، وينط إلى باحة الدار،يجرع من (الحِبْ)[٦] قليلاً من الماء، ويقعد خلف عارضة (الصريفة)، متفحصاً المرأة العجوزالمتشحة بالسواد وهي تقوم بأفاعيل عجيبة، وتفح بكلمات وعبارات غريبة، فتهرب الأفاعي نحو النهر، وينام الكلب، ويخشخش قصب (الصريفة)، ينوح نواحاً مخيفاً، ويتغير لون الماء في الطست إلى الوردي، وترفرف العصافير في الفانوس وتزقزق.

ذات ليلة رأى أمه تحدث شبحاً أحمر، ترقص حوله أشباح صغيرة حمر أيضاً، فلما سألها قالت له: إنهم من الجن، وهم أرواح شريرة، ضارة، ثم بسبست بكلمات مباركة وأدعية طردت ا لجنيات، وأحضرت أرواحاً نقية بيضاء كالحليب طاهرة، وخيرة، قعدت مع (أمه ـ جدته)، وتحدثت معها عن يوم القيامة، وواقعة الطف، والمهدي المنتظر، وعلمتها كيف تحضر تمائم خاصة ضد الأعداء،والحسّاد، وأخرى لعلاج الضعف الجنسي، والعشق، والوسواس.

---

(٥) البرحي: من أجود أنواع التمور العراقية.

(٦) الحب: جرة فخارية كبيرة، يبرّد فيها الماء، عرفها السومريون الأوائل، وما زالت تستخدم حتى الآن، في بعض مناطق العراق الريفية.

أخذت أمه رجفة قامت بعدها، توضأت، وصلّت ودعت لسلمان بالابتعاد عن الشياطين الذين ركبوه، وسلخوا روحه الطاهرة، وأحبت أن تكتب له تميمة تصنعها بنفسها.

كانت تلك ليلة سحرية إذ ما تملكت (أمه ـ جدته) قشعريرة عارمة أمام قدر كبير يغلي ماء، تهسهس تحته نار زرقاء، من (بريمز)[٧] برونزي.

ماذا تفعل أمه ـ جدته الآن؟ ماذا تبغي من شياطينه؟ أجلسته لصقها، رشت فوق رأسه قطرات من ماء الورد، بخّرت الصريفة، ذوبت كومة ملح في القدر. فتحت صندوقاً رصّعته بالدبابيس، أخرجت منه قنينة صمغ بني ودلقته في الماء، ومن كاغد عتيق لمت ذروراً من الزجاج، خلطته مع العفص، ثم عجنت الخليط بعسل أسود مصفر، وأضافته للماء المالح، وحركت المزيج بملعقة خشبية طويلة، وهي تتمتم: بسم الله، الله أكبر، يا شياطين.. كش.. كش.. كش.. هدّأت من وطأة النار وعادت (تنود)[٨] بتمتماتها مغمضة العينين.

.. دقيقة، وفتحت عينيها، أطفأت النار، سكبت المزيج في كأس نحاسية، تكممه قطعة قماش خفيفة، صفّته فسال عصيراً أسود مثل الحبر.. غطست رأس قصبة رفيعة فيه، وخطت على ورقة، رسوماً وآيات قرآنية، طوتها عدة طيات، ودستها في كيس جلدي،

---

(٧) البريمز: أعجمية متداولة في الدارجة العراقية وتعني الموقد الذي يعمل بالنفط.

(٨) تنود: تحرك جذعها الأعلى وهي قاعدة، تقرأ القرآن.

شكّته على كتف سلمان مع خرزة زرقاء.

قالت له: ستحميك هذه الآيات من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس.

قال: أريد خرزة سلمان التي لا يموت حاملها.

قالت: أعطيها لمن يواجه الموت.

.. فتذكر ذلك ولم ينسه أبداً.

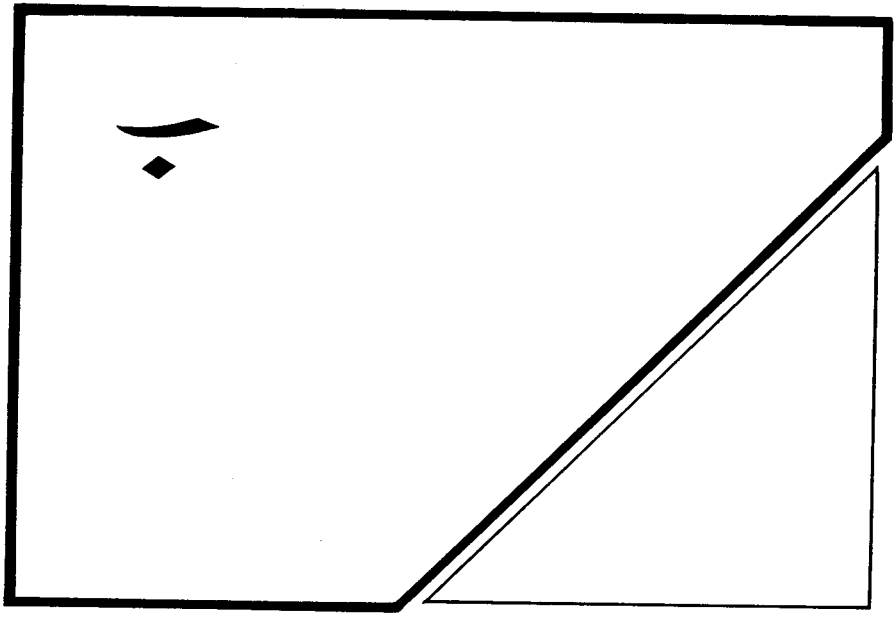

تلك الليلة كانت مسكونة بالرهبة، والتحدي. هناك من يواجه الموت وحده، يجري بين شاخات بستان ساهي، وحشرات (البازنينو)[1]، تراقبه مشفقة وسعفات النخيل تميل عليه،تريد أن تلفه بخوصها وتحميه، والأشواك تقوم، تخز أرجل الشرطة، وأشواك (الخروب) تشد ثيابهم لتمزقها، ويتحول الماء طيناً لزجاً، مثل رمال متحركة تعيق ركضهم. سلمان يصرخ وهو يهرول عبر زقاق (الصويلات) ينادي:

ـ يا أمي يا بستان، احم علياً من الموت، احم الأعرج من الغياب، ويا أشواك اخرزي أرجل الشرطة، ويا خروب، مزق ثيابهم، وخدّش أصابعهم. يا نهر يا طين اغمرهم، واطمس وجوههم، كيلا يروا، ويا ضفادع ابصقي على أناملهم، فتمتلىء بالدمامل، علي يواجه الموت يا أماه.

---

(١) البازنينو: حشرات رعّاشة، شفافة الأجنحة، تحط على أدغال الأنهر، أغلب الأحيان، هكذا يسمي البصريون تلك الحشرات دون سواهم من مدن العراق الأخرى.

بم. بم. أصوات رصاص.

ـ يا رصاص ارجع اليهم واقتلهم. شش شش... يا سعف كتّف خوصك وأخف الأعرج أخفه.

سلمـان يركض زاعقاً، منتحباً، وذيل دشداشته يهفهف خلفه يبغي اللحاق به.

الليل جاثم ساكن، عنيد، طيني، وقاتل.. وصل القنطرة، عبرها، بحلق فيه الكلب. عيناه، حمراوتان، عينا الكلب.

نط عليه. على سلمان. شمّه، وأقعى بباب الصريفة، يخزره، كأنه ينتظر أمر مهمة خطيرة، سينفذها.

الصريفة مظلمة.. أين أمه؟ غادرها حائراً.

ابـتسـم الكلب، قال الكلب: الحق أمـك، هي ذهبت لتجلب الخرزة، تعطيها لعلي.. هو.. هو هو هو.. حو حو حو حو حو حو ووو.....

قال سلمـان: تعـال معي يا كلب... نلحق بأمنا.. تعال عض الشرطة، مزق خصاهم واهرق دمهم:

نبح الكلب: دمهم.. هم. دمهم.. هم هم.. هو هو هو هو هو هو هو هو.. حو حو حو حو حو حووووو.....

هرول سلمان، شمر الكلب جذعه على قائمتيه الخلفيتين، هز ذيله، طار وراءه، نبض قلبه بيقين الحياة وجموحها.

سلمان يصرخ: أين؟ أين.. يا كلب.. ذهبت أمي؟. مسح الكلب

وجهه، كشّر عن أنياب طويلة، وحشية ثم نبح، وخاطب الليل وسلمان:

ـ اركض.. اركض.. الليل طويل، والموت قريب يا ليل لف علياً الأعرج بعباءتك. احمه. يا ليل اغمر الشرطة بكوابيس الأدغال. يا كلاب مشردة، اذهبي إلى هناك. عضي أرجل الشرطة. اركض يا سلمان صوب النهر. نهر الخندق.

وأنت يا ليل اخفنا عن العيون.. ويا ثعابين التقّي حول بعضك. بيضي بيضاً سحرياً، يبقبق محه بالحياة، والحرارة، واذهبي بسلام إلى جوف النهر، وصادقي الضفادع، ونامي مع السلاحف، ولا تقتتلي، ولا تقتلي، فأنت الآن تحرسين الحياة، وانسابي مع مياه النهر، فمياه النهر سلام، النخيل والطين والأرواح النقية الطيبة....

هو هو.. هو هو هوووووو.. حو حو حو حوووو.... عو وو عو عو عو عو عووووو...

تدلى لسان الكلب، رجّ جسده لهاث محموم. وسلمان يسمع دقات قلب الكلب تنطق بالسلام.

وصلا الدرب المترب تراباً أبيض. وَشَمّت أقدامهما طبعات فضية شعت ببريق غامض.. الليل غلاف مقبب مثل درع سلحفاة. ونواتىء النخيل تعربش قبضة الظلام، تندمج كتلة واحدة، أغمق وأعمق سواداً. تنصت لنقيق الضفادع، وصرير الصراصير، وفحيح الأفاعي. النخيل جوف الليل، والليل مغارة السكون، والقمر أحمر ينزف تجرحه السماء.

كانت الأم ـ الجدة منتصبة كعمود جامع الكوفة تتابع عيناها

نقطة ما، شامة معدنية تتوهج على الأفق.

فردت يديها. بدت مثل صليب أسود. سدلت فوقه عباءة سوداء. الليل يدور حول الأم دورات ودورات. لكل دورة عين، داخل كل عين بؤبؤ أحمر مثل القمر. رفعت الأم كفيها إلى أعلى تتوسل السماء.

نزف القمر. سقطت قطرة دم ضخمة منه على الأرض وذابت. بعد أن صبغت الأديم بالاحمرار.

قعدت الأم ـ الجدة. عقدت ذراعيها. عاطت نثرت شعرها. وتلوّت على التراب ثم سكنت وقعدت القرفصاء.

انسل من النهر ثعبانان طويلان. دبّا، تلويا، انبثقا، أمام الأم ودقا عيونهما بعينيها.

توسطا الفراغ الدموي، التفا على بعضهما البعض، ورقصا بشدة مجدولين مثل ضفيرة منتصبة كقصبة، تعاضا، لحسا عيني بعضهما. سُمع قرع طبول بعيدة.

تمايل النخل وتفرّق. صبغت النهر مويجات لها لون قزح المطر. وانقشع عن الأفق البعيد خيط نور فضي.

الثعبانان الملتحمان، الراقصان، يخشخشان أجراس ذيليهما بهجة وحبوراً، وحراشفهما تلونت بالزرقة الفضية. والحمرة البنية، من فرط لذتهما الماحقة. انفكا..... خفتت الطبول. عاد النخيل والتم، فاختفى خيط النور، وتدحرجت بيضة صغيرة، مثل حبة عقيق على حشيش الضفة (إنها خرزة سليمان السحرية).

تركها الثعبانان، هبة الحياة، ثم آبا النهر، عاشقين، محبين.

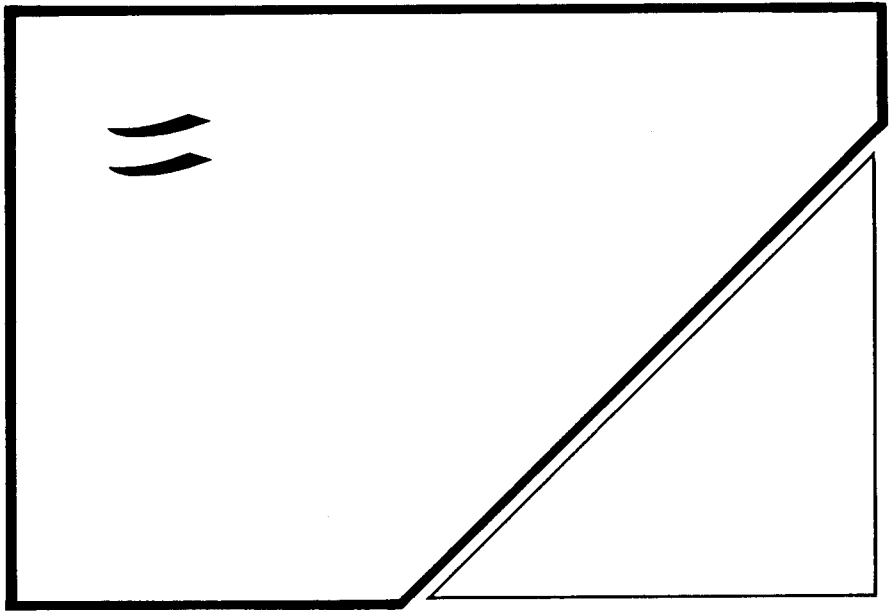

في تلك البقعة النائية، عند قبر أحد الأولياء، تمحل آثار البصرة القديمة فاتحة حدودها على (باب الزبير)[1]، ترهفها خضرة بساتين، ممتدة، يانعة.

على جنـاح النهر قبالة القبة المهترئة، يميل بناء عتيق لمكبس تمـور.. يلوح مهجـوراً، إلّا من حنفيات جافة، تتماوت في سواق اسمنتية تتبعثر جنبها صناديق تمر فارغة.

ذلك الصمت الجنـائـزي، الذي يوشي السكون ببكائيته، ذلك الذهول الغامض، الممتلىء بأسرار، حكايات الحب والموت، والعمل التـالف الماضي، يصعب فهمه لدى الغريب سوى أنه يعبر مكاناً مسحوراً، مغلقاً على مصيدة بشرية، في تلك الآماد الغابية، سيكون للأشباح شأن مع الضالين ليلاً، وسيعملون مع الأفاقين والمشردين على درء كل من يرمي حجراً يقلق بحيرة الهدوء السرمدي، الخارج على الزمن.

(١) باب الزبير: منطقة في البصرة، سميت على اسم أحد أقدم أبواب المدينة.

أي حب يكنه النخيل للنهر، والنهر لحيواناته، والأشباح لسكونها والليل لأوهامه، والناس لأسرارهم؟ هنا اختبأ بقايا (زنج البصرة)[٢]، يجرون سيوفهم المدماة بأشلاء العباسيين. ينظرون رايات (الزط)[٣] الممزقة، وسفائن الموفق، المحترقة، أو الشاهقة يتقدمها المنجنيق وقذائف الاسفلت الناري، والنبال الملتهبة بخِرَق الحوارق، تلتهمهم الأراضي الغارقة والقناطر المهشمة، يسبحون، ويخوضون في المياه السود، إلى قلب الظلال المخادعة، ليطردوا التاريخ الآسن الكريه، ليخلفوا تاريخ أسر وعوائل الزنوج الباقية، الآن، تزويها الأكواخ القصبية، تكفيها أقل وجبة شمس وجرعة من ماء العشار، وحفنة تمر، فتختض أعينهم، وتلصف حمرا، حينما يتذكرون الجدود، ورياتهم الموشومة بالسفن وسعف النخيل وصرخات (علي بن محمد)[٤].

النخيل محض ظلال، صار كمائن للعدو والصديق، والنهر مخاضة داستها آثار آخر الشرطة، الخائفين. كان ذلك هو آخر ليل في حرب الزنوج المسكونين، بأنين أرواح جدودهم الطائفة، يستمعون إلى الرصاصات الطائشات تخرق، عذوق النخيل، فتحيد عن الهارب الأعرج (علي الحمداني)، أيكون قد أخذه الليل إلى دهاليز بستان ساهي؟ عم يبحث الشرطة في لفائف الظلام، وقد اختفى علي مع الملائكة ومضى؟.. قلوبهم منسوفة، ووجوههم صفر

---

(٢) زنج البصرة: البقايا الثائرة المتقهقرة، آخر أيام ثورة الزنج الشهيرة، أمام جحافل العباسيين بقيادة الموفق.

(٣) الزط: قبائل هندية الأصل قطنت أهوار البصرة وساندت الزنج في ثورتهم.

(٤) علي بن محمد: قائد ثورة الزنج، القتيل.

تسطّحها نيران مواقد الزنج، وألسن الزنج تهمس:

«الملائكة تحميه».

.. في شق كان يوماً ما نهراً متفرعاً، من نهر العشار، نشف الآن ويبس، وتوحش بالخروب، (والشفلّح)[٥]، والدغل، ربض علي، ينزف آخر آماله. ظلام فوق وتحت ومن حول، والليل صندوق لجنون الرغبات.

الأماكن صمت، والصمت يقطينة نقيق الضفادع الفزعة، وصرير صراصير الليل المهووسة.

يئز الرصاص فوقه.. تقترب الأقدام منه، الشرطة يتراكضون، يسمع أصواتهم فقط، الليل صديق.. انهم خائفون، سيعبر إلى محلة «الحساوية»[٦]، ثم يغور في تخوم البساتين حتى (صبخة العرب)[٧]، أيقن بوجود أكثر من سيارة شرطة واقفة عند ذلك الشارع، فقد آخر آماله، سمع للتو هدير موتوراتها...

لا قمر الليلة، النجوم فقط، خال النجوم نخلاً نورانياً، تسلق نخلة، مد يده، والتقط نجمة، إنها تمرة، تمرة من ضوء فضي. أزت رصاصة فوقه، سقطت نجمة، تلتها نجوم، أضاءت الأرض تحته، انهم يطلقون على النجوم، نزل ووضع النجوم في جيبه، وركض تجاه

---

(٥) الشفلّح: نبتة دغلية تؤكل.

(٦) الحساوية: منطقة شمال محلة نظران، قطنها الفلاحون القادمون من الاحساء.

(٧) صبخة العرب: منطقة قديمة في البصرة.

النهـر، سيجـري نحـو المخـاضة مسرعاً، ولكنه أعرج، سيعرج مسرعاً، من كسر رجله؟ الله! هكذا قالت له أمه، سمع صوتاً مكبراً كفّن الليل بالرعب!

«استسلم أيها الأحمر، ولن ينالك أذى .. سلّم نفسك للشرطة، وتسلم، لك الأمان.. آن ـ آن آن ن ن ن ن ن ن».

أضـواء النجـوم تكسرت على صفحـة نهـر العشـار. طاشت الكسرات، صارت صواني زينتها النجوم. رجرجتها حركة الضفادع المـأخـوذة، بالضـوء المفـاجيء.. علي مكسـوف لضيـاع نجومه المتساقطة من جيبه.

فج الليـل والنخـل ضوء كشّـاف، ضوء/أضـواء السيـارات المسلّطة على بستان الظلام.. انبطح، الضوء أعلاه، نوّر تيجان النخيل.

أزت رصـاصات بين رجليه. الضوء فوقه، تحته، شعشع عند دكات النخيل. غادر مكانه راكضاً. أطلق رصاصة من مسدسه.

كان فزعاً، أتخونه شجاعته في آخر ليلة من لياليه؟ ما انفك يأمل ويتأمل وروحه تلهج:

«احفـظي اسمي إلى الأبـد، يا نخلات، وأنت يا نهر، بارك لي نجومي، وأنت يا ضفادع أعينيني على عجزي وأنتم يا سود البشرة اكتبوا في قلوبكم دعاء لمحبتي لكم، وقوتي فيكم، وعرفاني بجميلكم...

ألا فلتهزي يا نخلات نجومك وساقطيها ضوءاً على المياه. ألا

فلتفتح قاعك يا نهر قبراً لي ولنجومي..

ألا فليكن الليل كفني، والأشباح مشيعي جنازتي، وأصابع الجن شموعاً على قبري.

هبني يا علي بن محمد حبك قوياً، باهراً من كفيك الداميتين..

هبيني يا دروب؟ وأروقة، وحواري نسمات لقلبي الفزع فأقوى وأركض صوب حتفي الذي لا مرد له، ولا تدعيني أستسلم للسفلة.

وأنت يا أحلام طالما راودتني بسفلة وأوغاد يأكلون من كبدي ويشربون من دمي، أطردي أفكار السوء والخذلان من بدني، أنا قوي بليل كهذا، ومارد في مخاضه لا تصل أطراف ردائي.

أفكاري قلقي، وحبي موتي، وبقائي فنائي وزوالي اعجابي بسرور استشهادي.

غني لي يا عذوق نخل (البرحي)، ويا غبار الطلع طش ذرورك في الآماد بدلاً من الغبار، أنت يا غبار الطلع، رحيق النجوم المحترق ببارود الأوغاد..

رققيني يا نسمات وطيري بي على نهر العشار، على شط العرب، يا بصرة لا تتركي ابنك الميت. كفنيه. اذرفي ولو دمعة على قبره، أغلقي جفنيه الميتين، على الأقل.. على الأقل.. على الأقل..

النخل يردد: ادفني الميت على الأقل.

الشط يردد: اذرفي دمعة عليه على الأقل.

حيوانات الليل تردد: أغلقي جفنيه الميتين على الأقل.

كورس الزوال يردد كالصدى: على الأقل.. على الأقل.. على الأقل..

سلمان العبد يركض، وراءه جيش من الجن والشياطين، وعبيد الماء، والمارد الجبار، والأرواح المقاتلة، ايقاعات أقدامها، تحفر الأرض، فترتج المياه، ويقوم الجن النائمون من قيعان الأنهار، ويلتحقون بكتائب الشياطين، للجن قرون تقدح شرراً، للشياطين مخالب تشطر السماء، والأرواح تطير ،تسترها أقنعة من جلود الخفافيش، والمارد يحمل على ظهره عبد الماء، هرج ومرج، وكرنفال من زعيق وعزيف، وصفير. النخيل ينتضي أثواباً بيضاء كالطناطل، يلتحق بجوقة الأرواح، الأولياء يتململون في قبورهم، ينتفضون من قبورهم، حاملين عظامهم على أكتافهم، راكضين بفتات من اللوح المحفوظ، جمع من الأموات المؤمنين، يعبرون المخاضات والبساتين، يلبون نداء استغاثة غامضاً... يا ميتافيزيقيا كوني رحمة على العالمين.

دمدمات طبول وعواء الأبواق.. سلمان يشير إلى جيوش الجن والملائكة والأرواح الحية والميتة. الا أسرعي إلى بستان ساهي واقتلي الشرطة، وشلّي قواهم، والكلب ينبح رافعاً ذيله، بوصلة للمتأخرين لاحقاً بسلمان، صارخاً عليه:

ـ عليهم.. عليهم يا عبد.. يا شياطين وأرواح هو هو هو هو....

يا كلاب قومي وعضي الأوغاد، يا قطط أسامح أرواحك الطيبة، مزقي وجوه السفلة، يا أقوام الزنج دعوا أرواح موتاكم

في (المختارة)[٨] تقوم، وتنجد المتخبط في مخاضات نظران.. هو هو هو هو....

تكسّر الظلام إلى ظلال موعتها أضواء النجوم المتناثرة نجوم تخجلها حساسيتها المفرطة، النخيل ينصت إلى نبضات الأرض، والأرض تمارس العادة السرية مع النهر، الزاحف على بطنه، لا تخلو من السفاسف تلك العادات الأرضية، فيرميها الليل بالعجائب والغرائب، بالقلق والأرق، والمساومة، والمطاردة، والصمود،، والخنق بحبال الفزع، تدانى النخل التصق بعضه ببعض، تحجرت أنساغه، وارتدى مسوح الأرواح، أضاع الشرطة تيه الظنون، صاروا يرون الضفادع تضاجع أمهاتهم والسلاحف تلوط بآبائهم، واخواتهم يحككن فروجهن بالعذوق اليابسة، هزهم يقينهم بفاجعتهم، فاجعة بيوتهم المدماة، وقد سالت على عتباتها دماء اخوانهم المذبوحين، وأبناؤهم الرضع يسلقهم ماء قدر سماوي تجمره النيران وهم يصرخون: بابا.. بابا.. بابا.. بابا.. بابا.... أخافتهم الرؤيا همهموا واجفين:

ـ إنها القيامة.. سيظهر الأعور الدجال، ويقوم الإمام المهدي من الغيبة.

لم تشرق الشمس من الغرب، بل ما زالت تقتادها سفينة من خيبة وضجيج واحباط، صوب أطلال تسقفها أضلع الموتى المقتولين قبل نزول آدم من حضرة الحضن المقدس في الجنة..

---

(٨) المختارة: العاصمة التاريخية للزنج الثائرين.

ما كان آدم يعرف القلق، ولا كانت حواء تعرف غشاء البكارة، لذلك عاشا سعيدين. جنون.. جنون... ذلك الليل.. يا عالم استيقظ، تعالوا إلى المخروقين المحشوين بالاضطراب، الفوضى لولب والكلب ينبح:

- هو هو هو حو حو حو.. حرب على مخانيث الأرض. دعوة من السماء هي كذب كذب هو هو هو نبوءة جديدة من أحلام النخيل.. هو هو هو... حو حو حو حووووو....

سلمان العبد يطير كالسنونو، تحمله خفقات سعف النخيل، يدب تحته جيش من كائنات العالم السفلي، ثيران برؤوس بشر، وبشر بأرجل نسور، ونساء بلا مؤخرات، أقدامهن من خشب الأرز.

إلى هناك، إلى فسحة طينية تتلوث دماً يصهل مثل حصان واقف دسوا جمرة في مؤخرته، وخازوقاً في فمه، توقفت الأرجل، والقرون، والعيون، والمجسات، والملامس، والكلابات وانطفأت الشموع، وتجمدت الضفادع ميتة، والثعابين مسلوبة الإرادة، وسال خيط دموي رقّع الماء، بجلطة ضخمة طفت على سطحه مثل رمث، جثت عليها الضفادع والسمك وحشرات البازنينو و (سلابيح)[٩] أبو الزمير، والدعاميص وصغار الجنبري والقواقع. كان علي ميتاً مقلوباً على جنبه وقد ثقبته عشر رصاصات. من كل ثقب طلّت نجمة تقاوم الغرق في طوفان الدم، وتجذف في أنهار الجسد تهيجها الضفاف المتخثرة، وقف سلمان عند الجثة، ذرف دمعة كبيرة، تلقفها جني وراح يلعب بها (البينك بونك) مع جني آخر..

(٩) سلابيح: الديدان الطويلة الملساء.

إنـه أحـد الجن اللامبالين، المولعين بفلسفة (كامو). سامحه سلمان، ثم ذرف دمعة أخرى على وجه علي، غسلت جراحه، فتح علي فمه، قال من بطنه:

ـ ها سلمان. أتيت متأخراً.

ـ جئت بخرزة سليمان لأقيك شر الموت.

ـ متـأخر دائماً يا سلمان العبد.. أعط الخرزة للجني المهرج لاعب البينك بونك، ودعه يترحّم على (علي) وأعطه نسخة جديدة من كتاب كامو (الغريب).

ـ سيذكرك السود ولن ينسوك.

ـ سأنتظرهم في النار، هناك نرقص (الهيوة)[١٠].

ـ حسن مع السلامة.

ـ قل لأصـدقـائـي أن يرحـمـوا أطفـال الشرطة. وأولئـك الرضعالمفزوعون، في رؤيا القدر الناري، أسمعهم يصرخون بابا.. بابا.. بابا.. أخرجهم وأعطهم ضفادع بنية.

ـ وأين أجد ضفادع بنية؟ ها.. لا تحرجني يا علي.

ـ كبيرتهم واقفة على جبهتي. خذها فهي حلم من أحلامي.

كانت الضفـدعـة رابضـة على جبهة الميت تنق، كأنها تعزف معزوفة ذهاب الشياطين، إلى الأبد، بروح علي، على حمّالة من أثير. إنها تودعهم الوداع الأخير، قبل أن تصبح ألعوبة أحد أطفال الشرطة.

---

(١٠) الهيوة: رقصة خاصة بزنوج البصرة.

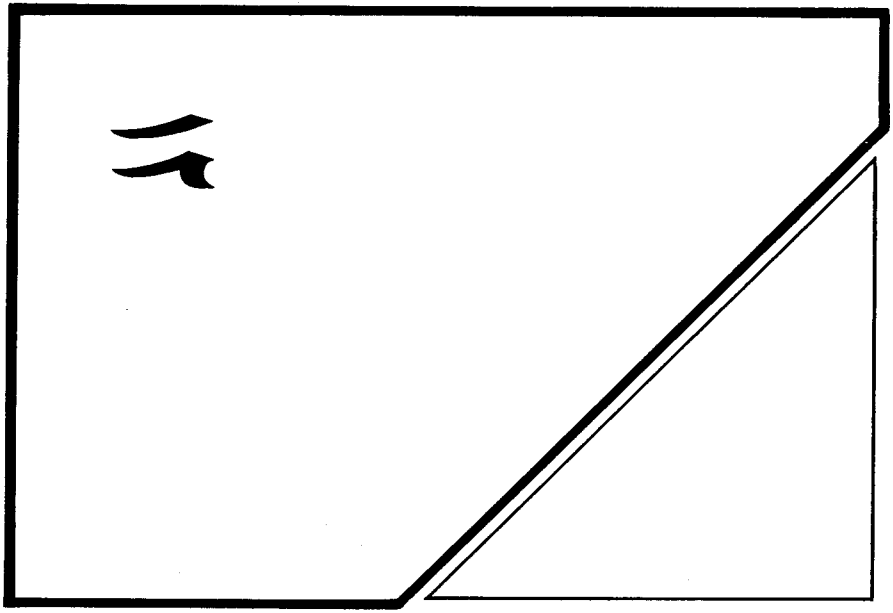

الساعة السادسة والنصف، أطلق قطار الحمولة، صفرة عالية، فدب جرمه الثقيل بطيئاً، ودارت العجلات متلازمة في عتلاتها الرقّاصة، وقد ناءت بأثقال العربات المحملة اسمنتاً، خشباً وحديداً، إلى بغداد.

عبر القطار قنطرة الجسر المعلق فوق نهر الخندق ثم رحل بعيداً، مختفياً وراء غابات (كوت الحجاج).

ترك ناظر المحطة مبناه الأصفر، حملق في الفراغ، هشّ كلباً يتشمم روثاً قرب السكة...

المحطة خاوية بعد انطفاء ضجيج الآلات.. صامتة، مكتفية بما يهسّ خلل سعف النخيل ويرن داخل العربات المهجورة.

كانت هناك عدة عربات مهجورة، خالية، نزعت عنها عجلاتها فاستقرت على الأرض، استغلها العشاق وطالبو الشهوة، مستأنسين بتسامح الشيخ أيبارا أو الحكيم: حارس المحطة الذي طالما قال: «أن تأخذ الشهوة حراماً أمتع من أخذها حلالاً»...

قرر ناظر المحطة احتساء فنجان قهوة عند الحارس، والحقيقة

أن ما يجيش في ذهنه من تساؤلات كانت، تدفعه لمعرفة أسبابها من الشيخ ايبارا، إذ لا بد أن يكون على علم واف بأمور كهذي، سيما وأن القصة انتشرت بعد معرفة الشرطة بما يربط ايبارا بعلي الأعرج...

أشعل سيجارة، تقدم خطوات متمهلاً، مستنشقاً الهواء ملء رئتيه، دخل كابينة صبغت باللون البني...

كان ايبارا جالساً أمام (منقلته)[1] ينبش الجمر، ويلف سيجارةً صامتاً كعادته. شعره أشيب طويل منسرح على كتفيه. حاجباه كثيفان يرتجفان باستمرار، وطرفا سبابته ووسطه صفراوان من أثر التدخين. كعادته الشيخ ايبارا عض شاربه المتهدل، على شفته العليا ،ظنه الناظر قلقاً أورثته إياه الحوادث التي تعرض لها أيام كان بحاراً.

يتذكر الناظر أن ايبارا بعد أن شاخ وعجز عن ركوب البحر، التقاه ذات ظهيرة بباب الزبير، سلّم عليه، وطلب منه العمل في المحطة، فرفع طلبه إلى الوزارة، التي قبلته بعد بضعة أشهر حارساً على ممتلكات المحطة الثابتة...

جعل ايبارا من العربة التي يسكنها منزلاً دائماً له، كما كان كل صباح يتجول في البساتين صامتاً، متأملاً وحتى منزعجاً أحياناً من بعض الفضوليين الذين طالما سألوه عن حياة البحر وعجائبه. فكان يردعهم سوى الغلام سلمان العبد، الذي اصطفاه صديقاً رغم صغر سنه.

(١) المنقلة: حاوية حديدية، مستطيلة، يُشعل فيها الفحم، ويجمّر.

سلّم الناظر، ردّ الشيخ السلام، جلس عنده، صب ايبارا فنجاناً من القهوة المرة، جرع الناظر قطرات البن الأسود، صب له ثانية وثالثة، حتى هز الفنجان فتوقف الشيخ عن التقديم.

قال الناظر كي يفتح حديثاً كاسراً جليد الصمت المطبق الذي أيقن أنه لو سكت لظلا صامتين هكذا حتى آخر الليل:

ـ ايه شيخنا.. كيف أمورك؟

قال الشيخ دون أن يرفع ناظريه، وهو يقلب الجمر بملقط متفحم:

ـ الحمد لله... ما دمتم بخير، أنا بخير.

لاحظ الناظر انزعاج ايبارا أو تبلبله ربما، فقال ممازحاً:

ـ وكيف العشاق آخر الليل. أنا معك في التسامح معهم.. شباب. ليتمتعوا...

ـ هكذا أعتقد وأقول، لو سنحت لنا فرصة نحن، حينما كنا شباباً لفعلناها وفعلتها أنا مرّة.

عينا الشيخ محروقتان، تجاعيده تكتئب، كان وما زال يعرف أصول اللعبة التي يلعبها معه ناظر المحطة، كل لقاء. يطرقه، يهزه، آملاً سماع رنين الماضي..

الناظر يحب حكايات البحر، مولعاً بها، لكن الشيخ امتنع هذه المرة، فما استطرد، نفث دخان سيجارته من أنفه بعد أن استنشقه بعمق، داعبَ جمرها، ماسحاً عنه الرماد.

شعر الناظر بحراجة وجوده، همّ بالمغادرة، مستأذناً، قال الشيخ كعادته:

- إلى أين يا رجل. أكمل قهوتك معي...

اعتذر الناظر متظاهراً بموعد كاذب ضربه لشخص وهمي، وانصرف موقناً بأن الشيخ قد ارتاح كثيراً لانصرافه..

قام ايبارا بعد رحيل الناظر، ورش الأرض الترابية خارج العربة، فرش حصيرة من البردى الطري، ثم حطّ المنقلة المتوهجة جمراً قدامها، رتب الجمر، ركز أباريق القهوة النحاسية أمامه: الكبير في الوسط، على جنبيه ابريقان أصغر، اعتز بهما كثيراً، فهما بعض مما تبقى من ماضيه البحري يوم بادلهما بقميصه الهندي المزرر بأزرار عاج، في سوق أبي ظبي...

الشفق الأحمر يحنّي قمم النخيل، السماء صافية. الهواء رطب قليلاً، وحار، لا يخلو من نسمات منعشة.

ايبارا كتلة من الغموض الأبنوسي أمامه جمرة السيجارة، كأنها عينه الوحيدة.

على امتداد ذلك الأفق البعيد الأزرق، الذي تتدرج زرقته حتى تخف، لتبيض، متخصبة بصفرة دخانية، إذ ما كانت الشمس تغور بعيداً وراء الآماد السحيقة، المجهولة، كان هناك ظل مركب مهشم، يتراقص، صواريه تتعامد والأفق على شكل مثلث تعلقت به خشبتان سائبتان تناوم عليهما ايبارا وقد انزاحت عن جبهته كوفية بيضاء متسخة، أنقعها الماء المالح، كانت ترتسم على شفتيه

ابتسامة حالمة، يداه مرتاحتان إلى بطنه، بهدوء وثقة، ورجلاه ممتدتان صوب الأفق الشمالي الشرقي، بعيداً عن الحطام الذي بدا واضحاً أنه ظل لحطام على الأرض الحمراء، حطام مركب تكسرت ضلوعه وانفلش قيدومه ومال قريباً من مويجات البحر، مخسفاً على الساحل، وحيداً، مثل حيوان بحري ميت، نتأت منه عظامه، وتجلطت حوله رسوم ساكنة قد تكون بقايا روحه تتشبث هوى البحر، وتتوسله، إلّا أن البحر كان ينأى، صامتاً، لا ظل له، ولا روح،

* * * * * *

الرمث المهشم، المعلق، يجذب البحر اليه، أو يجذبه البحر، وايبارا يبحلق بكرة عينه اليمنى فقط، إلى ذلك الساحل المترامي حيث انتصب نورس على دكة خشبية، مشققة، بائدة، أهملها عمال السفن.. النورس ينظر بعين آسية إلى قفص، داخله شبكة وأنشوطة، قفص وكأنه كمين للبحر أو مكيدة للطائر، غير أن الطائر يرهفه ذلك السكون الجليدي القاسي، الموحي بالضياع، والنأي، واللاجدوى، يحدج البحر، تغضبه تلك العين المخرزية الفائضة من قبة (رأس ايبارا) السوداء.

ينكت الطير منقاره الأحمر، كلما تلوّت تلك السمكة الفضية الصغيرة، بين أسنانه الدقيقة. كان يعضها، دون أن تغير في وقفته هازاً ذيله المستقيم، حتى يلتصق بجناحه النافر مكوناً زاوية لا تتعدى الـ (١٠) درجات، زاوية حادة ما بين الريش لو امتدت لالتقت حتماً بظلال الرمث المتشبث بالموج. البحر يتكسر مويجات هرمية، تنبض سفوحها الشرقية بومضات ضوئية، لربما انعكست

عليها من شعيعات حادة تشرق باستمرار عبر طرف البحر الشرقي...

القفص كمين لظلال الرمث، والسمكة تلوب في منقار النورس، الذي تأهب شيئاً فشيئاً للطيران، تأنى ألقى السمكة إلى القفص وطار حيث تغيب المويجات فتصبح سطحاً صقيلاً من زرقة باهتة، ضبابية، تغيّبها اللانهاية.

أفاق ايبارا على عزف (النهّام)[٢]، وترداد البحارة، فإذا الرمس موسق بـ (جلل)[٣] التمر، و (النوخذة)[٤]، يصرخ:

ـ أبحر.. أبحر.. توكل على الله.

ابتعدت اليابسة، صارت خيطاً أسود، متذبذباً ما لبث أن غار جلس ايبارا على صندوقه المحلّى بزهور القرنفل.

ـ الريح مؤاتية يا رجال.

صرخ أحدهم. قال ايبارا لزنجي مرتدٍ وزرة لوّنتها خطوط متصالبة:

ـ من أين أبحرنا؟
ـ من البصرة.
ـ للتو؟

---

(٢) النهّام: مغني السفينة، ومطربها أثناء نوبات العمل.
(٣) الجلل: القفف.
(٤) النوخذة: ربان السفينة وهي كنية خليجية بحتة.

ـ لا منذ شهر.

ـ وأين نذهب؟

ـ إلى دلتا نهر الروفيجي.

ـ على أي سفينة نحن؟

ـ على ابن رشدان.. سامحك الله.. أنت تحلم.

المياه عميقة، السفينة (البوم) تتحاشى الجزر، حاذتهم جزيرة كبيرة، صحراء بحرية لا ترى خلفها بحر تلك جزيرة (قيسي).. البحر صاف، السفينة تجاور الساحل ثم ترسو في مسقط...

ـ جنوباً يا رجل. يا لله توكل على الله.

عاط النوخذة، وغنى النهّام:

«وادعتكم بالسلامة يا ضوا عيني وخلافكم في الوعد ما غمض جفني على عيني».

ـ على المكلاّ يا رجال. شدوا الحبال، اسحبوا المجاذيف بربر (النوخذة) ثم صرخ على قادة زوارق «الماشوة».

ـ يا لله.. يا لله.. يا رجال. ورانا عمل أياماً وليالي...

الساحل الحضرموتي أصفر، قاحل، تتراكض فوق أديمه أشباح أشباه عراة، يقف بعضهم، يلوح بيده، ونساء يهتفن حاملات أطفالهن في سلال:

ـ «هنا.. هنا.. يا ابن رشدان».

السفينة (البوم) ترسو، تكاد تميل على جانبها، تتخبط، الأشباح

المتلهفة إلى الرحيل، تتسلق حبالها، وسقالاتها ثم تتكوم على السطح، يصرخ النوخذة:

ـ النساء إلى (العنبر)[٥].

يعترضن، فهناك، تحت، تشتد الحرارة، ويدمس الظلام، فتختنق الروح برائحة الخشب العفن.

ـ لن ننزل يا نوخذة إلى العنبر.

ـ ارجعن إلى دياركن اذن.

تنصاع النسوة للأمر وأطفالهن يبكون.. طفل ما يلقي بنفسه إلى الماء، يغوص، يلحقه ايبارا، يغوص وراءه، يفقد أثره، يعود، يرجّفه الخوف، لم يصدق أحد ما قال، ظنوه يهذي وهو يحكي قصة تحول الطفل الغارق إلى سمكة غارت، في شعاب الأعماق وولت تحمل وجه انسان معذب، يئن، كأنه طعن بسيف، كأنه شرب الألم صافياً، من كف الصحاري، من راحة الموت.. راح هناك كي يموت وحيداً، ليحيا من جديد، في مملكة البحر، ورؤيا الفرح الفطري.

وصلوا «رأس حافون»، ثم غادروها بعد لأي...

المياه تتضحل، يتقزم البحر، والسفينة تقترب لترسو ليس بعيداً عن ساحل أخضر، أسباره مظلمة، حارّة، البخار يتصاعد من أرضها، والنباتات والأشجار الكثيفة، المتشابكة، والدغل الملون، تهزهزه القرود، والطيور، وتفح بين وريقاته ثعابين سامة، وسحالٍ..

---

(٥) العنبر: قبو السفينة، ومخزنها، ومستودعها.

ولا أحـد يعرف تماماً ما وراء الأجمات المتناهيات! فمن يجازف؟ يقولون ان الأرض مسحورة هناك، تبتلع الرجال، والقبائل تشوي الغـربـاء، وتأكلهم، وتصنع من جلود البحارة طبولاً يدقونها كي يشنـوا الحـرب، ومن يؤسر يقـاد إلى عمق الغابات، حيث تقتلع أسنانه، وتقطع أذنه ليعلقها الآسر في رقبته.

نزل البحارة من زوارق (الماشوة) مسلحين بالسيوف والخناجر وبنادق الشيشخانة ثم توغلوا في عمق نهر الرفيجي بحثاً عن خشب (المـانجـروف)[٦]، الذي لا تقطع عروقه حشرة السوس، ولا تأكل السنين لبه.

النهر مخاضة طينية، ما تلبث أن تتحول إلى رعب حقيقي من مياه جارفة قوية، والأشجار المدارية والسرخسية، واناث جوز الهند تتمايل مع ريح مصفرّة، مع زعيق القرود المبتهجة، وصيء الفيلة، وفرس النهر يتابع الزورق عن بعد منتهزاً فرصة انقلابه لينقض عليه.

القنادس تتفرق، يتحاشى البحارة سدودها، منشغلين، يدققون في تعرجات الساحل، عسى تلوح أجمة المانجروف التي طالما قصوا منهـا خشبهـا، أياماً وأياماً، يقضونها والبعوض يسلخ جلودهم، حتى مات كثـير منهم بالمـلاريا، أو الحمّى الصفراء.. التماسيح تلاحقهم أينمـا ذهبوا، يضربونها بالمجاذيف، تغط، لتطفو ثانية، تلبط أذيالها في المياه الضحلة، الموحلة، أعداد هائلة من التماسيح

(٦) المانجروف: جذوع شجر المانجروف، القوية، التي تستخدم في بناء السفن والدور يجلبها البحارة الخليجيون من القارة السوداء، إلى الكويت والبصرة.

تهجم على النهر من الغابة، وتطوقهم، ترعبهم في رحلة عودتهم بعدما كانوا قد أنهوا قطع الكمية المطلوبة من المانجروف الجو رطب، والعمل الشاق الجحيمي حولهم إلى مجانين.

ينتظر (البوم) أياماً، حتى يعود البحارة ـ يساعدهم بعض من أبناء القبائل ـ بما قطع من الأشجار يجرونها حتى الساحل حيث يشحنونها، ويهربون كأنهم من الجحيم انفلتوا إلى جنة البحر الرحيم، الرحب، الواسع، والسماء العطوفة الشفوقة. حينها يتشممون اليم، يحيون الدلافين، الناطة، الفرحة، الرياح جنوبية غربية، وإذا حالفهم الحظ سيصلون الهند قبل انتهاء شهر أبريل وبذلك يكونون قد أتموا ستة أشهر في المياه الغريبة يقضون بعدها شهراً في ميناء (منقلور) ثم يتجهون إلى خليج العرب فالبصرة...

لاح لهم ساحل (بلوجستار)، توقفوا في (كراتشي)، غادروها بعد بضعة أيام. كانت حصيلتهم بعضاً من بائعات الهوى، توقفوا عند (كاليكوت) شحنوا السفينة صباحاً، ثم توكلوا على الرياح المؤاتية، كي توصلهم مسرعين إلى (منقلور) حيث بداية نهاية رحلتهم الموسمية.

* * * * * *

تواطأت السماء مع الأحلام، والأحلام رحيق عذاب ووحدة قاسية. توهجت تحت المياه، أو فوقها في رؤى بعيدة، هي مزيج من ذكريات ومشاهد ما يلبث أن يستعيدها الذهن متأججاً كأنه يحرق في داخل رأسه، بخوراً لمعبد المشاهدات. تتنور الزرقة الرجراجة لآماد البحار التي لا حدود لها، بتلك المعابد المشعة ذهباً كالنار،

تجرها خيول الحجر، على عجلات من رخام، ينسكب الزمن فوقها ظلالاً متـوحشـة، أروقتها مسرح لأوهام الباقين أحياء، من يرث الخلود؟ الظلال لا تجيب، ولا الحجـارة، ولا تلك الأعمدة الواقفة على جدث الزمن، تسخر من رؤى الانسان، وتستدرجه إلى دهاليزها فيتيه، فلا ترى سوى ظل لقمر غير موجود، إلا نوره الفضي ينسكب على تماثيل صغيرة، أعينها جاحظة تبتسم وهي تمتطي أحصنة لها شوارب، ضخمة، وآذان كآذان الخنازير، جامحة، في موت الحجر، في السخـريـة من الفناء، حيث تتهشم السنون، خلال الغرانيت والصخـور السود، وتذوب الألوان، ويتقزح النور، وئيداً، راسماً أكثر من لوحة خيالية لمقرنصات الأفاريز، والأعمدة، تتحول الحياة إلى سكون، جامد، يتحرك تحته عنف جامح، عنف لون أصابع فنان مجهـول، ومنسي. يبحلق في المكـان يختفي المكان، يزول الزمان، وتبقى الرؤيا...

كان ذلك حينما اقتعد (ايبارا) مدرجات معبد (زاوية الشمس) تحت تلك العجلة الحجرية الهائلة التي تصورها ستهرسه الآن، بين قبب مخروطية تايلندية، تشبه الأناناس، وحده يتعثر ثم ينظر إلى سكونه الخاص الملون بألوان وحدته.

هنـا كانوا ذات يوم يرقصون في ساحات (نات مندر)، يغنون فيـطربـون الرسـوم، المنحوتة على قبب المعابد الهرمية، بأشكال النمور والفيلة والمحاربين والنساء الشيقات الراقصات حول إله الشمس.

إنهم الآن بوجـودهم الشبحي، غير المـرئي الناطق بمساعدة الآله، يسخـرون منـه ويضحكـون، ويشـيرون اليـه. يقتـربون

ويقتربون، يملؤون أنفاسه برائحة أجسادهم المبخرة، جاعلين من حياته حلماً، فيصبح اليقين عنده هو الخلود، والزمن آثار أقدام الرائحين إلى الأبد على مدرجات المعبد، صوب السماء، فلا يرجعون. ليس هناك سوى النور الذي يوشح صمت المباني الخارقة، المطلوسة بأرواح المصلين، بألوان اليقظة، التي ما تني تزرق وتخضر وتسود فيحل نوم طويل، طويل، أقوى من جرس الأيام...

إذّاك تحل لحظات الخلود، ويأتي السرمد، من جوهر الحجر، فتغيب الآثار إلى الأبد...

ما الذي يجعل عناصر الطبيعة، غير مرتاحة، وقلقة، هائجة؟ أتكون تلك لعنة المعابد الغارقة في صمتها تطارد غربتهم أينما حلوا؟ أللموت في البحر خصوصية الخلود؟

المعابد الشفافة المترقرقة عبر الغروب، وعلى السواحل، أو تلك التي تبين وتختفي تحت طبقات المياه، كأنها حلم البحر، أو لهفة تترنق، أو غفوة تبدو كصورة من خيال أشياء قديمة ما زالت تؤثر في حاضر الأذهان، ثم تزول بعدما تومىء بغموض إلى السماء، التي تسود، فتظلم الدنيا ويطبق سحاب كثيف على قوس الأفق ويحل صمت رهيب، ساعات قبل أن تنقلب الموجات الصغيرات جبالاً، وأهرامات تضرب جانب السفينة، تلاطمها.. يترنح (البوم). تنكسر الصواري الثانوية، الريح يشتد صرصرها، تتخاطف رؤوس الاهرامات فتنثرها رذاذاً، والضباب كتل قباب مدوخة، دوامة تيه، نفق للرعب والموت. يأمر (النوخذة) بإنزال الأشرعة، ذلك النوخذة الآلي، الأهبل، المتاجر بمصائرهم، من أجل حفنة (روبيات).

الطبيعة دائماً أسرع وأمهر. يا أيها النوخذة لو أخذت درساً من صمت المعابد لما حلّ بنا ما حل..

يرمضهم الجوع والعطش، يتحايل بحّار على بقايا التمر في العنبر يعجن التمرات بماء البحر، ويسقي العطاش. الموج مخرز، السفينة تتهاوى، والبحارة ينشمرون فوق الرذاذ، تحت أكمام الغيوم، ويضيع كل شيء سوى الهدير والعصف وتزاحم اللجج.

ايبارا وثلاثة ـ ماتوا فيما بعد عطشاً ـ يتقاذفهم الضباب في قارب (الماشوة) الذي تناوشوه بعد غرق (البوم). طوق نجاة يطرزون به تيههم على كثبان الموج...

أيها البحر ألا ترحم زوالنا، وحياتنا التي لا معنى لها، هكذا نحن، من يستطيع أن يتعشقك ويكون منك ومثلك سوى عرائس البحر، والأسماك، والغيلان. اجعلنا أصحاباً لك وأشفق علينا..

يرسل البحر اليهم حوتاً. يتنسمون رائحة (العنبر)[٧]، يتهامسون: «عنبر.. عنبر» يتلاقفون الكتلة العائمة اللزجة كأنها هدية الحوت للبحر الأرستقراطي المحب للهدايا والجمال والحياة...

«إنه العنبر يا أصحاب، كلوا مِنْ مَنِّ وسلوى البحر».

يصرخ ايبارا.

يرسون على جزيرة أرضها لدنة. يرتاحون يشوون النار فإذا الأرض ظهر حوت. يحترق جلده ويشيط. انهم يأكلون من لحم

(٧) العنبر: عصارة لزجة يتقيأها الحوت.

أرض البحر. يشبعون. والحوت يصرخ بأبناء آدم:

«تأوون إلى ظهري وتأكلون من لحمي».

يعميه الغضب، فيغوص إلى الأعماق إلى القاع السفلي حيث لا إنسان يأكله، آخذاً معه هداياه، من المارقين، إلى سكون المعابد وقاعاتها الرحبة، ليسجنوا ويحاكموا هناك، ليصب الزيت في آذانهم، ليبصق الكهنة في أفواههم، ويخدموا الرب ما داموا أنصاف أحياء، أنصاف أموات.

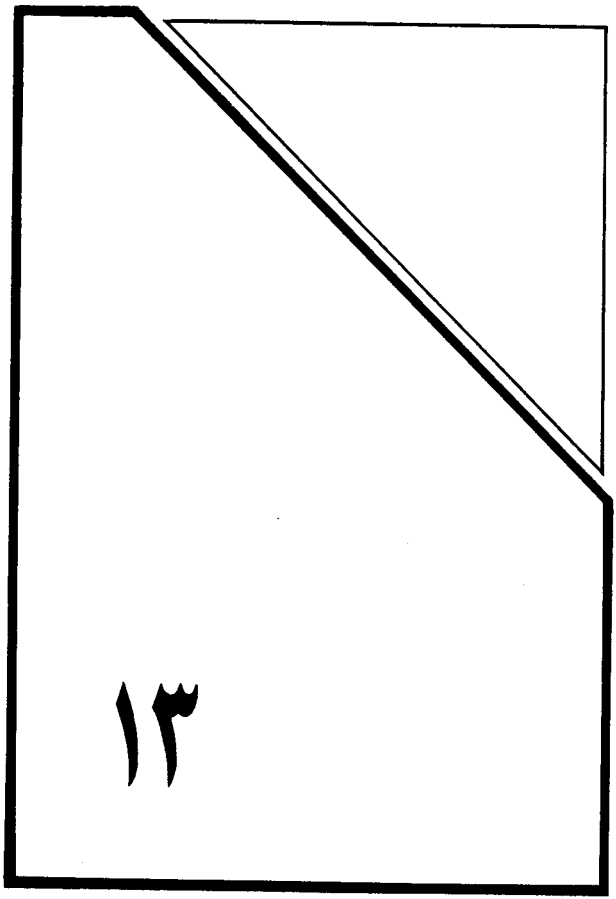
١٣

في الليل نادراً ما يطأ الناس درب (الشوك) المتلوي في أحشاء البساتين الكثيفة إلّا القلة من الفلاحين، ولقد كانت طبيعة ذلك الدرب المنعزلة، هي ما تدفع سلمان العبد إلى تحدي مخاوف الناس، والعبور منه إلى حيث يقبع الشيخ ايبارا الذي يحبه ويقدره، يسهر معه، يشرب القهوة، ينادمه، مستمعاً إليه تبهره قصص الشيخ عن البحر والبحارة ثم ينصرف عنه بعد أن يكون ايبارا قد نعس وتعب من الكلام.

الآن...، الشيخ وحده يشيل يده ويزيح عن روحه لججاً سوداً، يقف سلمان العبد جنبه، يسلّم عليه، يقعد. يصب ايبارا له فنجان قهوة، يحركها سلمان ويشربها ثم يهز الفنجان دلالة الاكتفاء. ينبش ايبارا الجمر ويقول:

ـ البحر بعيد وقريب.. ونحن غرقى.

سلمان يلتقط الكلمات، ويفهمها بصعوبة.

قال سلمان:

ـ قتلوا علياً الأعرج.. الشرطة قتلته.

ـ عرفت، علي جسور وشجاع. كان لا بد أن يعيش في زمن آخر. هذا زمن السفلة، انظر إلى السماء يا سلمان، أترى النجمتين انهما الزهـرة، والمـريخ... انهما الآن يقتربان بشدة، من برج الحوت، سوف يتطابقان ويتلاحمان وستبزغ نجمة أخرى ويحدث الطوفان...

.. النجمـان يتسارعان للقيا بعضهما البعض... الكون ينذر بالويل والكارثة والثبور.

يتسـاقـط غبار أحمر، تصير السماء حمراء، والأرض حمراء، والميـاه حمـراء، تمطر السماء دماً وفيراً، وبَرَداً أحمر، تهب رياح تنحني أمـامهـا رؤوس النخيـل. تأخـذ سلمـان وايبارا النبوءة الكـوارثيـة وهي تقتلع الأرض بعدما حل فيها الفساد، ويمر ليل طويـل أطول من مئة عام. ليل دامس، تدب الحشرات في أرجائه هلعـة، طائرة، راكضة، قافزة، الضفادع تولول مذعورة، يلتصق الجـراد بالنخيل، تذوب الصخور، ويشق الليل ذيل مذنب هائج يشع شرراً وناراً، ينجب الذباب بعوضاً، ينط السمك من البحار إلى اليـابسة ميتاً، تدمر الأعاصير المدن والغابات، تنهار جبال وتقوم جبال، تختفي محيطات، وتفيض محيطات تلتهم الصحارى، حتى يبلغ الطوفـان شواهق السمـاء، وتلوح الأفعى النارية، برؤوس عديـدة، غاضبة، تبصق النار، تمطر الأرض بالنيازك، ويجول في الأفق عمود من سحاب وضباب حار.

«ارتجت الأرض، ارتعشت أسس الجبال وارتعدت، لأنه غضب، صعد دخان من أنفه ونار من فمه، طأطأ السماوات ونزل ضباب تحت رجليه. من الشعاع قدامه عبر سحبه، برد وجمر ونار. أرعد

الرب من السماوات والعلى، أعطى صوته برداً وحجراً وناراً. أرسل سهامه فشتتهم بروقاً كثيرة، فأزعجهم فظهرت أعماق المياه، انكشفت أسس المسكونة من زجرك يا رب، من نسمة ريح أنفك..»[1]. تضرب الزلازل اليابسة، تشتعل الحرائق، تنشف الأنهار، تنفجر البراكين، تسمع جلبة رهيبة، عظيمة، الثعبان المجنح يقذف الأرض ناراً فيصير الجنوب شمالاً، والشمال جنوباً، تحرق الحرارة الأحياء، مياه البحار تغلي وتبقبق، يجمد القمر شاحباً في برجه، ترتفع اللجج، فتسّاقط نجمة الشيطان مدخنة، آخذة شكل ثور له ثلاثة قرون ولحية كأنها مشعل وهّاج. تغطي الأرض المياه، ويغرق كل شيء. قام ايبارا، صلى للرب مقتاداً سلمان العبد معه ثم صعدا إلى برج (بابل) كي يقدما النذور والقرابين إلى رب الأرباب عسى تنتهي الكارثة الكونية الكبرى، وينجو الإنسان.. ارتقيا البرج طبقة طبقة، حتى وصلا القمة حيث المعبد الفسيح ايزاجيل قال ايبارا:

«ليرحم الرب العظيم أبناءه الصغار».

فتح الباب كهنة لحاهم مضفورة، دخلا وما كادا يلجان المعبد حتى اختفى جسداهما، صارا روحين شفافين كباقي الارواح. كان المعبد ملوناً. سمعا صوت الكاهن [آنوبال شون] هادرا: سيموت اليهود غيظاً وكمداً، وستملأ قلوبهم الحسرات، برجنا (بورسيبا) لرب الارباب مردوك، الهنا.. واليهود عبيد لنا، فاسمعوا، سيبقى معبد [أيتمانينكي] حجر الزاوية بين الارض والسماء، حيث الرب

(١) من التوراة.

سيأتي ليرتاح، ساعة، ثم يقوم ويضاجع البنت الطاهرة، وينجب الاولاد...

ترددت صوت آخر مهول:

«اني أقمت على القمة أجمل وأعظم بيت لمردوك سيدي.. انني أقمت ايتمانينكي الذي سيبقى الى الأبد.»

كان عالماً آخر ذلك الذي دخلاه، سيركاً مجنوناً، عابثاً، ملوناً ساخراً، غاضباً وقاتلاً. لف ايبارا سلمان العبد بعباءته خوف ان تصيبه السهام والرماح والنبال المتراشقة في خضم الفوضى والجنون، والعبث المستهجن.

كان [آنو] أبو السماوات وملكها، يرتدي حلة بيضاء لها جناحاً بجعة ضخمة، يحاول قتل كائن شرير يربط يده بحبل، تطير حول فمه اسراب الذباب، والبعوض، كان يبتسم، فيما كان [الاجيجي] و[الانوناكي] يناديان:

«ايه.. آنو.. آنو.. أعلن البيان الاول ليوم القيامة».

كان الكائن الذبابي الشرير يستنجد بحشرة عملاقة ذيلها بالون أصفر تجرجر غزالاً يضاجع نفسه ويعض ذيله، مجنحاً بجناحي فراشة، كل جناح يشبه سجادة غريبة التطريز، الغزال مخنوق بسلسلة يشدها غير مبال آكل نمل بليد تجره سعلاة قتلت عضاية ضخمة بنيه قبل لحظات بان فرجها مفتوقاً بعد أن ضاجعتها حتى الموت، [الاجيجي] تطارده سمكة ترفرف بجناحي خفاش وفم بشري يستدير اليها ويضربها، [الانوناكي] على ارض المهرجان

الحربي يلبس خوذة محارة يشدها شريط أخضر، الانوناكي يصرخ تتماوج حول صدره شعيرات سود كأرجل أم أربع وأربعين تهرب قدامه سمكة حراشفها ثعبانية تشبه قوقعة فارغة بطنها سوداء، السمكة تعض ذيل عضاية زرقاء لها رأس بشري مهووش الشعر أحمره، الرأس يصرخ اسنانه مهشمة تقضم حشرة بشرية مهلهلة الاجنحة تريد الخلاص من أذرع سمكة سرطانية غير عابئة بضفدعة منتفخة ضاحكة تشق بطنها وتخرج بيضاً كالبزاليا تنثره حولها فتلتهمه كلبة سوداء تلبس تاجاً تحليه ذراع بشرية واحدة.

[أنليل] إله الارض سيد الريح والروح يلوح بشبكة تعقدها شفرات موسية يطارد العصاة تتشبث به يد انبثقت من رجل نصف مقلوب نبيذي المؤخرة يلحسها تمساح أرجله سلحفاتية، [أنليل] يلبس درعاً على ظهره يبرز منه ذيل عضائي، بطن [أنليل] كرزية تغطيها قشرة عرنوس خضراء مصفرة، الحيوانات الشريرة تهرب يرتطم بعضها ببعض، الضباع أقعت فزعة وسمكة معقودة الذيل تصرخ يطعن رأسها سكين جزار كلاب الماء، ميتة مسودة عيونها مفتوحة رعباً، على أفواهها تطفح رغوة عجينية قذرة. [أنليل] يتعب من القتال يناول ابنه [سن] شبكته يضرب هذا بها أخطبوطاً مد أذرعه حتى نهاية سماء المعبد تتمسك به صائحة معزاة رأسها رأس كلب وأذناها أذنا خنزير وقرناها قرنا وعل، [أنكي] سيد الماء المقدس يلتفع رداء زيتونياً يقارع فراشة ضخمة تطوق سرتها حلقة بيضاء يهزهز ذيلها جرساً، للفراشة رأس وطواطي يرمي اله الماء بقنبلة يدوية يطعنها الاله ثم يعاود الهجوم على مسخ جريح تطوق رأسه أوراق محززة المسخ يقع صارخاً تموت الزرقة في عينيه، مسخ آخر يضحك فتبين له أنياب كلب بوليسي ما يلبث ان يسقط يضرجه

دمه فتبين احدى رجليه مسننة كمنشار أطبقت عليها بعضة قاتلة أسنـان [قنـدس]، انقلب على ظهره قتيلاً فاتحاً ساقيه عن ثقب مؤخرته. شيء وحيد ملفت للنظر هو اندهاش نملة ضخمة من أذن [أنكي] الهائلة وقد تدلى منها سلك اتصل بجهاز ترانسستور. كان [أنكي] يستمع الى موسيقى بيتهوفن، بينما يفتح فمه كل مرة ليطلق كرات طينية تتطاير في الفضاء فتتحول الى أقزام بشرية سود وصفر وحمر يصرخون يربطهم حبل سرة واحد، [نرجال] اله الوباء الذي يعاقب بالحديد والنار سيد [الآراللو] وأركان العالم السفلي ينقلب كل مرة من أسد الى ثور الى تنين ثم الى غراب تتناوس على صدره حرشفة حمراء ذيلها برتقالي، كان [نرجال] هائجاً بعد قتله سمكة قرش فكت فمها فانكشفت احشاؤها عن كائن بشري طحنته طحناً نبتت على سرتـه ريشـات زرق فيمـا كانت زوجـة الاله [نرجال] [أرشكيجال] تلوح بيدها الى زوجها كي يلحقها مسرعاً ليركبا سفينة خشبية نتأت منها رؤوس تنانين صغار تنظر اليهم أمهم التنينة باكيـة وهي تحـاول طرد المسـوخ عنهم ينقلب المسوخ أنفسهم يعضـون ذيول بعضهم البعض ثم يتفككون الى صوامل وتروس وألواح حديـدية وأسلاك وبطاريات مخسوفة انهم حيوانات آلية مفككة تداعب فروجها، حينما كانت حية عضايات وسعالٍ تفتح شدقيها بحقارة تكاتفها حشرات أجنحتها مخرقة وبطونها كرزية وعرنوسية تطير هنا وهناك تهدد بمقصات طويلة الاذرع فتقطع بها أعضاء سمكات قرش آدمية تثير الشفقة والاشمئزاز في آن واحد. كان الاله شمش ينظر وعيناه دامعتان منسحباً الى الوراء مجرجراً شعـره الأجعد الذهبي الوهاج، يتوسخ ذيله بقذارات بطة ينتفخ كسّها، ركب شمش صهوة حصانه طائراً الى الشرق يضيء العالم

يمنح الحياة ويحي الموتى تاركاً [سن] بوجهه القمري وقد تحول الى ثوير قوي القرون يلبس تاجاً يحمل صولجاناً كسره المسوخ ما لبث أن تحول الى شيخ له لحية من اللازورد حاملاً لوحاً طينياً كتبت عليه ملايين القرارات التالفة والتافهة تركض وراءه زوجته [نينجال] بكل عظمتها تريد اقناع ابنتها [عشتار] كي تكف عن سكب الشهوة في اقداح الشاي [عشتار] بأذرعها الثمانية تهرع خلف والديها الى العلى ترافقها عشرات العاهرات المقدسات والقوادون المحترمون الا [مردوك] فقد أصر على متابعة حروبه العتيقة من أجل خلق عالم جديد سوي خال من الشر. كان يعتمر قبعة حديدية عارياً لا يغطي عورته سوى لوحين مثلثين مريشين بريش أخضر وأصفر شاهراً سيفاً صغيراً قاطعاً يلف ساعده درع فضة. كانت تطير حول [مردوك] مجموعة ملائكة حلوين صغار ينفخون في الصور فتتساقط من أعالي السماء بطات شريدات ميتات الى قاع المهرجان العجيب لتلتقطها أفواه العظايا المكلوبة وأنياب التنانين الجائعة. [مردوك] ينزع غطاء رأسه تبين أعينه الأربع تنفث الشرر وصوته يصك الأسماع عزيفاً ورعداً بعد أن قتل [تيامات] و[كنجو] وداسهما ساحباً شبكته الذهبية من جسديهما الممزقين، ثم بطّ بطن [تيامات] فانفجرت مدوية دوياً هائلاً، تراجع [مردوك] الى الخلف الى حيث ذهب الآلهه الآخرون جاراً وراءه جثة التنين [كنجو] وقد مد لسانه وتناثر برازه حوله وفاحت رائحة النتن من جروح بطنه السبعة التي دبت داخلها خنافس وثعابين كانت تلغها يوم كان حياً. رفع [مردوك] سيفه شق [تيامات] نصفين، نصف رماه الى أعلى، فغطى السيرك الدامي بسماء ونجوم والنصف الآخر رماه تحت أرجل المسوخ الفزعة

الهـاربة بعد أن اندحرت نهائياً في معركتها الكرنفالية في معركة السماء التي لا جدوى منها الاطلاق، تشرق الشمس يطول النهار والرب [شمش] يكلل الارض الدامية بشعاع ذهبي وهاج صباخ حلو أحلى ما فيه [عشتار] وهي تمازح عواهرها المقدسات وتضحك يبهجها النور الجديد الذي يغدقه ابوها طول ليال من الفوضى التي لا معنى لها سوى اللعب مع الموت والسخرية من الخلود أية أقدار هذي التي لا تعرف الشهوة والحب. هكذا تتساءل [عشتار] غامزة أنليل الفرح متفحصة أيره المنتصب يراودها عن نفسها يريد ان ينكحها فتلين ينكحها تتأوه مغتبطة هامسة ان النكاح هدية عظمى للمحاربين الذين قاتلوا دهوراً دفاعاً عن مخلوقاتهم الآدمية التي لا تستحق حقيقة كل هذا العناء وكل ذلك الكذب.

* * * * * *

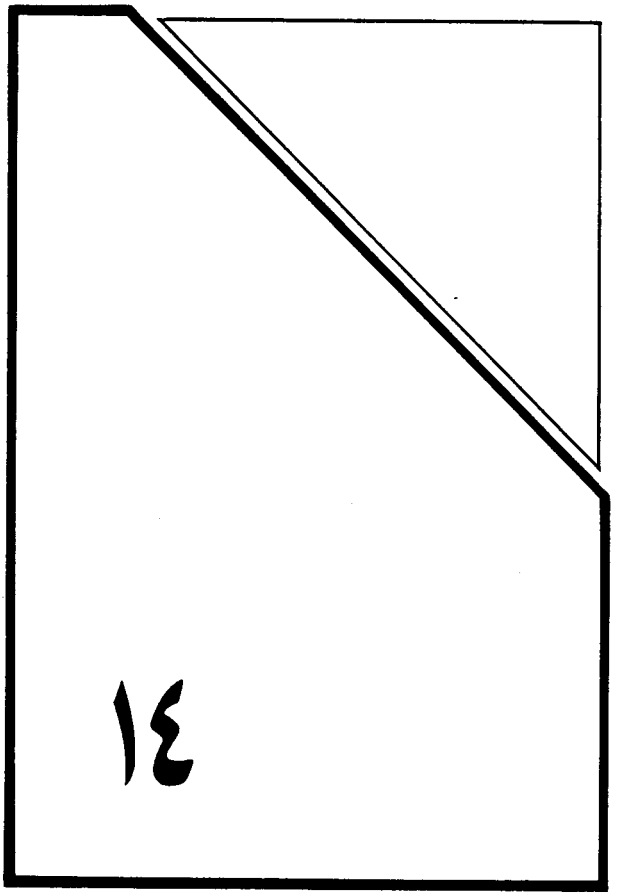
١٤

قطارات تروح وأخرى تجيء، تصفر وتمضي، خالية أو مكتظة بالناس الكسولين. لماذا يذهبون؟ لماذا يعودون، تحشرهم تلك العلب الحديدية، يقطعون أمداء الأرض، الى الفراغات والسكون، يولون ويأتي غيرهم وكأنهم هم أنفسهم يتشابهون في خمولهم وذهولهم ونعاسهم، المسافرون لا يفتأون يحملقون بالدروب المتخلفة عن قطاراتهم، والبساتين وجذوع النخيل وأعمدة الكهرباء تتسارع خلفهم، وهم يرحلون الى مكان ما يلبثون أن يتركوه ويرجعوا. تداعب نفوسهم أصداء زمن ولّى، رؤيا راسخة كالوشم، المتشذّر في أصلابهم، ذلك هو الزمن الغابر.. يحكي عنه الشيوخ حين جاء بشر مختلفون أنصاف عراة، تتصبب أجسادهم عرقاً يقودهم رجال بيض، يتمنطقون بالبنادق متباهين، يخزرون، يدققون، يبحثون عن شيء أضاعوه خلل غابات النخيل، قبعاتهم تنسدل على جباههم، واحد فقط تخلف عنهم. أحد المهندسين المعتدين بأنفسهم، يقعد، يخطّ خطاً على الأرض ويقول مثل إله:

ـ سنمد السكك من هنا.

رفع عينيه الى السماء، وأكمل راجياً:

ـ حتى برلين.. نعم حتى هناك. وسننير هذه الأرض المجهولة، الموحشة ونعلم المتوحشين أبناء قبائل ما بين النهرين أقانيم المسيح... أبانا في السماوات ارحم أبناءك.. آمين..

يراقبه بقية البيض كانوا يجرعون الماء من أكواز فخارية، والسود والسمر والخلاسيون المعتمرون اللفائف الهندية يهمهمون، ثم يتراكضون انصياعاً للأمر الصارم:

ـ مدوا الفولاذ من هنا.

تنصب الخيام ويهتف الرجال البيض:

ـ تحيا الملكة. يحيا الملك. المجد لرجال الامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، رجال بريطانيا العظمى.

يغادر المهندس مكانه، يصفّر للكلب، يتبعه، يبحلق في مياه نهر الخندق ثم يحفر بسكينه على جذع شجرة نبق:

ـ «تشارلز ١٩١٧.. لا تأسفوا عليّ أيها العراقيون».

يمضي بعيداً وهو يعلك، يغور نهائياً في أدغال النهر فلا يسأل عنه أحد، بل لا يدري به أحد، أو يسمع عنه، سوى تلك الشاهدة الوحيدة لقبر فارغ ما برحت تعلو ذلك المكان، تحت شجرة النبق الضخمة ذاتها، والتي نحت عليها:

ـ «هنا يرقد تشارلز.. مواليد ١٨٨٥.. لندن»..

إلا أن الشاهدة سرعان ما سرقت، ورئيت على عتبة أحد بيوت الفلاحين يقتعدها النسوة مستأنسات لنعومتها وبرودتها وقت

الصيف.. ما انفكت أن اختفت ثانيـة تماماً، ولربما سرقها أحد الطامعين بملمسها الناعم.

أيبـارا يتذكر ما سمع وما جرى حول تلك الشجرة التاريخية حيث اختفى تشـارلز الانكليزي قرب كابينته الماحلة اللون التي جلبها الرجال البيض آنذاك.. كان يفرش حصيرته تحت أغصان «سدرة النبق»، ويجالس سلمان العبد وهما يحملقان بالقطارات، حالمين، بملايين القطارات المزدحمة بملايين الوجوه.. قطارات تلوح وكأنها لا تجري على الأرض، ولا في السماء، وانما على سكة وهمية، في عالم وهمي..

داخـل كل عربـة وجـوه تتشـابه، تختلف عن وجوه العربات الاخرى.. هنا عربة حمراء بلون الدم ترتسم على جدرانها الداخلية فقاعات متفجرة كالدمل، تتشبع بوجوه نساء حزينات، صافنات، شعرهن متناثر كأنهن ما عرفن المرح اطلاقاً، يا للخسة أهكذا يقتل الفرح؟ تغادر العربة نطاق الحمرة القانية، الى ذلك السواد الفاحم، ووجوه أخرى، لا ليست وجوهاً بل أقنعة تتراءى خلال الشبابيك، أقنعة لحمية، بلا عيون، أفواهها شريرة، ممسوحة الخدود، تترصد المتحركات خارجاً تعلو جباهها حزوز على شكل قلوب، أنوفها تتنسم زهـوراً ثعبـانية، انها وجوه ساخرة، قاتلة، وشريرة تمضي، تتطلع دوماً، الى أعماقها، كأنها تفتش فيها عن شيء ما، قد تجده،بذكاء حاد يحكمهـا، حتى بدون عنف أحيـاناً.. تروح العربات المقنعة ويذوب هذيانها، أما تلك العربة الصغيرة المنفردة فان باطنها ملون بلون أرجواني مزرق، ومقاعدها قائمة في الفراغ، وزجاج نوافذها يشع ضوءاً خافتاً نبيذياً، وصمتاً، من مقعد لصق أحد نوافذ عربة

القطار يبين وجه امرأة يدوره فراغ الفراغ، امرأة مستوحشة بوهيمية، لا مبالية لا تعير أهمية لكل ما هو كائن حولها، هي وحدها. لا تحس حتى بوحدة الآخرين، سوى أنها تبكي نفسها، وتغادر نفسها وعالمها، باحثة عما يزيل ذلك الحزن القائم اللجوج من رواسب ذكرياتها فلا تعثر على شيء سوى فراغ وتفاهات وتفاصيل صغيرة ودسائس قذرة وانحطاطات. امرأة هي وحدها الحياة المتفردة بوحدانيتها، وكأن لا خارج، بل لا مكان.. عيناها صريحتان ووجهها جميل وقاس، لا شرّ فيه، شفتان تريدان ان تقولا شيئاً، غير أنهما بقيتا مزمومتين. حركت يدها اليمنى وحطت شالاً صوفياً على كتفها. أتريد أن تغادر الى مكان ما، أم أن تقفز من عربة القطار؟ ولكنها بقيت على حالها، هكذا، فهي تغادر مكانها الى مكانها، انها تسافر في السفر، متحفزة غير عابئة بالمكان، وستمضي بعد أن نكون متهمين على أية حال، بتينك العينين، متهمين بلا جدوى غاياتنا المحدودة، وسنوات حياتنا المترعة بالمفارقات...

وتمضي العربات، وتتلاحق السنون بصدأ الأيام، وتتقلب عربة مشحونة بالرغبات، والعطور، والشهوات لا تحمل هي الأخرى سوى امرأة وحيدة، ليست عاهرة، ولا عاشقة، بل امرأة، خبرت كل الرجال، وأمتهنتهم وأذلتهم، تقف هكذا وحدها في مساء قاطرتها، تحدج ظلام الخارج، في الداخل ظلام أيضاً، شعرها ينسدل على جبينها، يغطي وجنتيها. عيناها كبيرتان سوداوان، يداها مسدلتان جنبها، تتمتم بألفاظ غير مسموعة، أهي تلاوة آيات الحب المفقودة والشهوة العابرة. المرأة لا تبتسم، عيناها تتهمان، على شفتيها ألم ويأس، وخذلان، روحها تترمض استياء وامتعاضاً، لا تريد شيئاً الآن بعد أن أصبحت الأيام لا تعني شيئاً.

لقد اختارت الوحدة وستختار الضجيج متى تريد، وهي خطرة على كل حال، وستطحن من يدنو منها، بل أقل ما ستفعله هو أن تبصق في أي وجه، وتبول في فراش أي رجل حمار أو تعض أيره، أو تمارس الحب معه وتعشقه أبد الدهر.

العربة الاخيرة، كانت مثل طلقة الرحمة، أخيرة فعلاً، وقاسية ولا زمنية، عربة نصفها ماء، أشرق فيها قمر تغطسه غيوم زرق، وسماء تنذر بعاصفة وشيكة، لا مقاعد فيها غير زورق طاف على بحيرة، ترافقه بقايا القمر الناتىء، وظلال امرأة تعتلي الزورق ذاته. تعقد يديها في حضنها بوداعة وشفافية وأمومة، ملمحها بكائي سيما وان خديها غائران، وجبينها مقطب وعينيها دامعتان. هنالك من آذاها وخدش مشاعرها، أساء لخاطرها.

إن هي الا لحظات وانقلبت البحيرة، واصطبغت المياه بالاحمر البرتقالي، غاص الزروق، توارت السماء عن أكواخ مهترئة، وتشققت الخلفية الكواليسية عن حطام وخراب شامل، طرقات مهجورة، قبور منبوشة، شجرات مقتلعة، أموات ينادون على أموات، وغيوم مرسومة على الطين القاعي..... تنفجر المرأة بكاء، ينفك شعرها، منفسحاً على وجهها الجميل، تشتبك أصابعها بأصابعها، تتألم بشدة، تحاول أن تنسى، أن تتجاوز ذاكرتها، أن تغسل ألمها بدموعها، تنحب، وتئن، ذاكرتها تضغط عليها...

ماضيها يخزها، النسيان زورق طاف على بحيرة من طين. الأيام، والماضي قمر من دم، أية حياة تلك التي عاشتها؟ دموعها تكبر، تسيح على خديها، تصير دموعها بحيرة أخرى بديلة، يترقرق خلل صفائها، شبح القمر الجوال. تقوم المرأة للمرة الاخيرة فتتلاشى

بعيداً عن سخرية النهار وأضاليل الوضوح.

ينظر سلمان الى أيبارا، كان يبكي، الدنيا غير التي كانت عصراً، الظلام شامل، مهيب، مكتمل الأسرار، العربات مضت، الوجوه مضت، النساء مضين، الذاكرة تمضي، الرؤية تروح، المراقبة الحرة، الخفية العالية الحساسية عينها تغمض عينها الوحيدة، على ألم يتكور مثل السرطان، النساء يمضين مع الزمن، وأيباراً يراقب، صباحاً، ظهراً، عصراً، أما الآن هنا في الظلام فلا يمكن للوحيد الا أن يرى الحقيقة الكلية الشاملة، والأسرار الدفينة، للذين يبدون صريحين واضحين صباحاً.. تفووو... على النهار.

قال سلمان لأيبارا:

ـ عمي سأذهب الى البيت، أراك قد نعست.

ـ لن أنام، ومتى أردت النوم سأجعلك تنصرف.. ماذا هل مللت؟

ـ لا ولكنني سأذهب.. غداً صباحاً سأعمل عند بيت باشا النقيب.

ـ عند باشا النقيب ستكون نهايتك. أنا أرى ذلك جيداً.

ـ جدتي قالت لي ذلك.. اذهب واعمل نحن فقراء.

ـ أنا خائف عليك يا سلمان، ولكنه مكتوب في اللوح المحفوظ.

ـ وما مكتوب يا عماه؟

ـ يبين بعد ذلك. سيحسبك الكبار شريراً. أنت لست منهم، ولا هم منك أنت روح طيبة.

ـ عماه، لماذا يريد عليّ القتيل تغيير العالم؟

ـ هكذا أراد وفكر لأنه كان حياً، أما أنا فقد قتلوني منذ زمن بعيد.

ـ ولكنك جالس معي؟

ـ انها بقايا روحي يا ولدي.

ـ الملائكة معنا يا عم، أنا سأرحل لأنني غداً سأعمل في بيت باشا النقيب.

ـ اعمل هناك ودمّر ذلك البيت وسأقول لك ما يجب أن تفعل، وما أن نتم عملنا سنرحل من هذا المكان الى الابد.

قام سلمـان العبد، ناظراً الى أيبارا، فرآه مضرجاً بالدم قتيلاً كجمـل ذبيـح، ولكنه جالس يتكلم كأي حي.. فما عجب سلمان ومضى صوب طريق الشـوك متجهاً الى صريفته على شاطىء نهر نظران، تخفيه العتمة وتشيعه الضفادع النقاقة.

* * * * * *

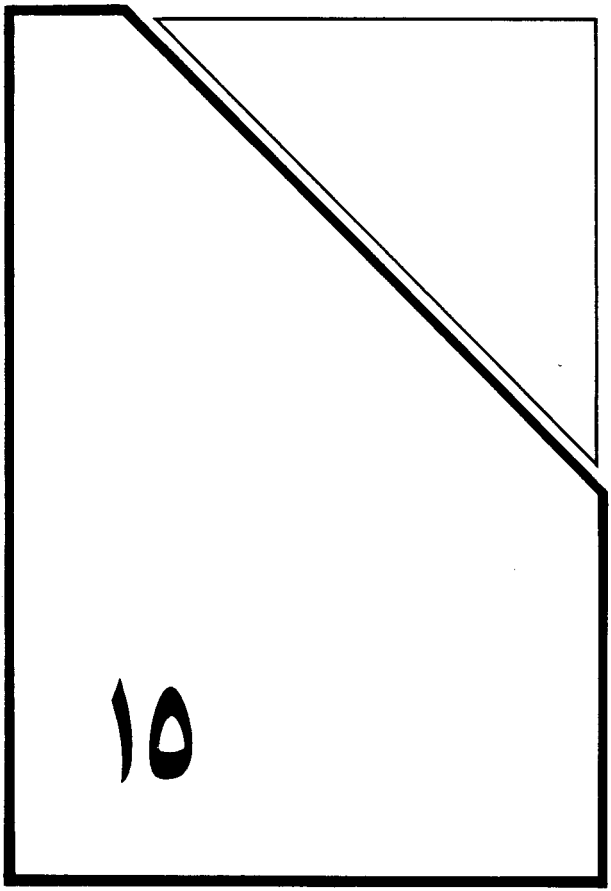
١٥

سكنت سلمان، تلك الوجوه الراحلة، الماضية. ألحت عليه راودته في منامه ويقظته، الوجوه تصرخ، يسمعها على الدوام:

ـ «اننـا راحلون، راحلون، وسترحل أنت أيضاً، ستموت وستذهب معنا الى أعلى البرج حيث المعرفة الحقة، كل شيء زائل، باطل، باطل الأباطيل باطل».

قام سلمان عن دكة دكان (علاوي القزم) ثم تهادى نحو انحدارة شارع نظران، لفتت انتباهه عينا الاستاذ محمد، تتطلعان اليه من طاقة بيته العليا، عينان ساخرتان تعرفان الكثير لكنهما لا توحيان الا بالثبور.

الشمس غلاف أصفر يترقرق على سطح الشط، والشط راكد مخضر بأشناته الأزلية، منكمش داخل دغل نخبته الثعابين والضفادع، انسيابها الحر يعلن عما يسمى بالنهار.

كان حالوب جالساً عند حافة جسر نظران، ضاماً رجليه الى صدره، أمامه قنينة بيبسي كولا، يعلك خبزة حارة، يتوقف عن البلع لحظات، يتمتم مع نفسه كالمجنون. أثار منظره اللوعة في قلب

سلمـان العبـد. كم تحدثوا عن حالوب، وعن مغامراته، يوم كان صبيـاً، يقولون انه يتصنع الجنون، ويخبىء كنزاً، تحت احدى نخلات بستان ساهي، كنزاً عثر عليه، حينما كان عامل تنقيب في مؤسسة الآثار العامة، في منطقة الزبير، ويقال إن ذلك الكنز يعود الى مولاتنا عائشة زوجة الرسول، جاءت كي تشتري جند البصرة يوم واقعة الجمل.

قعَد سلمان جنبه بعد أن سلّم عليه، رد حالوب همساً، دون أن يرفـع عينيـه. كان يحدق في ماضيه، ولربما في تلك الوجوه التي غادرته على مر عشرات السنين، سأله سلمان:

ـ ماذا ترى يا حالوب؟

ـ موتى وموتى.

بحلق فيه سلمان مدهوشاً:

ـ ومن هم؟

ـ الأحياء.

ـ ماذا تعني بالأحياء؟

ـ لست مجنوناً هاه، لست كذلك أنت تعرف. كل هؤلاء الأوغاد يكرهونني. أنا فقير وسينبشون قبري بحثاً عن الفلوس. هؤلاء الكلاب. أنا فقير.. ولكن ابنتي غصون. أنا أحبها.

تذكر سلمان غصون، تلك البنت العرجاء، التي لاكت الألسن سمعتها. سأله سلمان:

ـ وما بها؟

ـ لا شيء يا بني. قدر هذا. قدر مكتوب.

ثم أجهش باكياً، كان سلمان يفكر في مصير غصون. لعل الناس على صواب؟ أو لعل غصون نفسها على صواب؟ ألا يحق لها أن تعيش؟ هل هذا سر؟ لم يكن سلمان يفرق كثيراً بين أن تعطي المرأة جسدها لأي رجل، أو لرجل واحد! فما الفرق؟ تتزوج المرأة كي تستر نفسها، أي لكي تعيش، وتعطي المرأة جسدها لأي رجل، أي لكي تعيش أيضاً، ولكنها تصير غير مستورة. ما هو الستر إذن؟ من أوجده؟

لا بد اذن من سؤال ايبارا البحّار عن هذا الموضوع، ولكن أولاً عليه كشف السر بنفسه. الشمس تنوّر الساحة، التي بدت مثل صحن لامع، وصرائف الزنوج أعلى محلة (البلوش)[1]، تلصف مثل زوارق قصبية في بحيرة الضوء. أين يذهب الآن؟ هاه.؟ تذكر لا بد من التنقيب مجدداً في مبنى اللوندري القديم.

تخطى كابينة (أحمد دبابة) مصلّح الدرّاجات، ولج البناء، عبر فتحة خلفية لباب مخلوع، نبش أكوام القمامة، قلب العلب والقناني الفارغة. والأوراق والخرق الملوثة ببراز القطط والكلاب والناس، فاحت رائحة عفنة، هبّت الصراصير والعقارب تحت قدميه، داسها وهو ينطنط مرحاً ويصرخ:

ـ عيع.. عيع.. (خيسه)[2].

غادر المبنى، بدا مرحه لا معنى له سوى أنه وحده، ووحده فقط،

---

(١) البلوش: منطقة قرب نظران، على تلة تشرف على ساحة ثانوية البصرة للبنين.
(٢) خيسة: في الدارجة العراقية وتعني نتانة.

لولا تلك الوجوه التي رآها ـ حلم بها البارحة فخدشت روحه خدشاً غير ملحوظ:

ـ إنها هي. آه.

لمح «غصـون» تكـرج صوب محلّة البـاشـا، قرر متـابعتهـا والتجسس عليهـا.. كانت تسـير هادئـة، متـأنيـة، غير مرتبكة، أصابعها منطبقة على حقيبة منمنمة، واستدارات جسدها تتكور، تنفر، عبر ملاسة والتفافات عباءتها السوداء.

قالت غصون لنفسها:

ـ سأجد ذلك الطالب اللعين. اليوم جمعة.

اتجهت يميناً، أضحى جسر الغربان وراءها ثم اختفت خلف باب خشبي أثقلتـه الزخـارف العثمانية، والمملوكية، هبت روائح الطابوق العتيف من جوف الحوش. اكتنف الظلام عيني غصون، بعد أن لسعتها الشمس الوهاجة خارجاً، أغمضتهما، هنيهة، ثم فتحتهما كي تعتاد فارق الضوء، وشكل الظلال الثقيلة المرمية على أرضية الحوش، تنهدت بعمق، بحسرة، تأوهت. أبواب الحجرات المحيطة بالحوش الجواني مغلقة، وكذلك حجرات الحوش العلوي. تمتمت «خرجوا إلى أعمالهم»...

سمعت خرخشـة، تناهت اليها من حجرة الطالب، طرقت باب الحجرة، صوت ضعيف يسأل:

ـ من؟

ـ أنا غصون.

كان صوتهـا مبحـوحاً، خجلاً. انفتح الباب عن شاب أسمر، سماته طفولية، شفتاه شهوانيتان، شعره أجعد، يشبه شعر جندي أغريقي. رازها بعينين حزينتين معاتبتين. قالت:

ـ صباح الخير.

ـ تفضلي غصون. صباح النور.

دخلت. اقتعدت السرير، بغم الطالب كي يداري ارتباكه:

ـ أنا كسول.. حسناً سأزيح كل هذا.

ـ أساعدك؟

ـ لا.. لا شيء مهماً.

دس قنينـة عرق (الزحـلاوي) الفارغة تحت السرير، والقدح نصف الممتلىء بعرق البارحة، كرعه، وقذف به إلى ركن الغرفة، حيث الثياب مكومة، ثم طوى كتاباً داخله قلم، وحطه على حافة الشباك اليتيم. نظّف الطاولة بقميص وسخ، ثم رماه إلى الركن ذاته. دفع الجرائد والمجلات المتناثرة برجله إلى تحت الطاولة. قال:

ـ هل تسمحين؟

ـ ماذا؟

ـ انظم السرير.

بادرت وطوت البـطانيات، ثم نفضت الشرشف خارج الغرفة، عادت ففرشته على الفراش المبقع بإفرازات الجسد، وصفت فوقه البطانيات. قال:

ـ لحظة كي أحضر الشاي.

ـ لا داعي.

ضحك. وعلق:

ـ لست مستعجلاً. أنت مستعجلة؟

ـ لا..

ـ لا أدري. سأعود وأكرر عليك ثانية تعالي لي كزائرة أو صديقة، ولا تأتي وكأنك في عمل أنا لا أحب.

قاطعته:

ـ لا تحب.

ـ لا. لا أعني ذلك وانما أقول أنا لست كالآخرين وأنا أعرف وضعك.

ـ وهل أنت عضو في جمعية خيرية؟

ـ أنا لا أعتبرك كاللواتي الموجودات في المبغى العام.

ـ ماذا؟

ـ آسف لهذا التعبير ولكن افهميني على الاقل.

ـ يعني يجب ان أذهب.

ـ لا أجلسي أنت صديقة.

ـ لست شحاذة؟

ـ أووف.. أنت عنيدة جداً يبدو أنك فقدت القدرة على التمييز.

ـ بين من ومن؟

ـ بيني وبين الآخرين. الآخرون يشترون من دكانك وأنت تبيعينهم.

ـ وهل أنا سوق؟

ـ أنت أكثر من سوق وأخطر.. الصداقة أتعرفينها؟

ـ بلى. أعرف. ولكن أية صداقة؟

ـ حسناً افترضي أنك صاحبة دكان وهناك صديق يحب ان يجلس قربك كل صباح، يثرثر معك. دون أن يشتري شيئاً. وأنت بالمقابل تستأنسين بحديثه. هل تطردينه؟

ـ لا، طبعاً.

ـ اعتبريني كذلك.

ـ آه، ومن قال انني أستأنس بحديثك.

ـ إذن لن نتفق. حسناً سأشبع شهوتك بقدر رغبتك فقط.

ـ وماذا يعني بقدر رغبتي فقط؟

ـ أي أن تعطيني جسدك برغبتك دون شراء.

ـ يعني أنك لن تدفع لي.

ـ أوف. ليس هذا قصدي. تعلّمي. الحبيب الذي ينام مع حبيبته مثلاً. يعيشان حياتهما معاً روحاً وجسداً. يحبان بعضهما البعض.

ـ لسنا حبيبين.

ـ أقول مثلاً، مثلاً يا غصون. ثم حين تحتاج الحبيبة شيئاً من المال، أو بعضاً من الملابس، ألا يتعاونان؟

وصوصت بمرح:

ـ لماذا لا تفتح نقابة للدفاع عنا؟

ـ ولم لا. أنتن تبعن أجسادكن كما يبيع العامل قوة عمله.

ـ هذا ما يقوله الشيوعيون. جماعة موسكو.

ابتسم:

ـ وهل تكرهينهم؟

ـ انهم يعقدون الأمور، ولا يعترفون بالله سبحانه وتعالى.

تمـلى وجههـا، حاجبيها، شفتيها، عمق بؤبؤيها، داعب شعرها،

كانت مستسلمة، على وجهها رقائق ذبول وانصياع ورغبة، لا ارادية، ضغط بإبهامه على شفتها السفلى، عباءتها تنسرح، زيقها يتهدل عن نهدين دالعين، ثوبها الارجواني اللماع، ينحشر بين فخذيها، يمص شفتها السفلى، أصابعه تداعب كسّها، تملّس بظرها، تفركه، تزيح الثوب، يده تداعب بطنها، تنطوي إلى ردفيها، تخلع ثوبها، تنام على ظهرها، تباعد ساقيها، تفرجهما، تغمض عينيها. كانت هناك سماء بعيدة وألوان غريبة تتوامض نقطاً حمرا، ودوائر. تهيجها المداعبة. تعطي نفسها لهوس أصابعه، تتفكك أوصالها. تلج النشوة خلاياها، كم ضاجعت من الرجال! كانوا كأنهم يدسون خشبة فيها. يذوبها الآن وصال عذب ونار تحرق كسّها، تتعرق جبهتها، ينتفض جسمها، يشتّد حاراً بنشوتها، تحسه مرشوشاً بماء بارد يغسلها... همست:

ـ «لم يحدث لي هذا من قبل. لم يحدث».

العواطف الحادة، تقدح شرارة الروح، بنار خفية تسري في الجمادات، تشتعل الأجزاء، تحترق والأماني، أهي الغرفة التي تعلّب حاضرنا، وتشير الى مستقبلنا..؟

الأثاث يفقد صلابته، واتزانه الأرضي.. يتشقق بفعل حرارة غريبة، يتحول إلى رماد، تتبخر الخزانة، تموع الأرض، ينخسف الطابوق، يصير هباباً، الملابس تتقطع مدّخنة. الغرفة تسيح، تغور كأنها حمام تركي. السجادة المعلقة على الحائط تطير مثل بساط ريح يطوي نسيجه مواقد صغيرة، تدخن كأعواد البخور، الكتب وأدوات المطبخ والباب والشباك، والبطانيات، والمرآة، والعالم صائر الى زوال دخاني، لا يهجسه سوى الحاجين الى حنة يرفرف نهارها

على ظلال أشجار الجوز والأكي دنيا، في ظلمة فورانات عظيمة لأحلام تفيض من البدايات فتسري إلى العدم والتلاشي وتتدهور الأشياء.

كانت غصون تنادي عليه، عبر وهاد الضباب والدخان، شبحه يبتعد ويغور، يعبر الوجود الى العدم.. تصرخ:

ـ «أتتركني وحيدة، الوحدة تقتلني».

ما شكل وحدتها؟ كائن بشع بأذرع محرشفة، قاتلة ينمو داخلها يحول الصور الى رماد والرماد الى هباء، تصرخ عليه:

ـ «لا تتركني الوحدة تقتلني، خلصني من نفسي. خلّص نفسي من وحدتي، أين أنت أيها الميت، أين أنت؟».

طاش صراخها في صمت وديان تشتعل صدى متردداً على أهداب الغمام. وضاعت عارية تلهبها وحدة، تفصل روحها.. لا خلاص لا أمل.

* * * * * *

اتكأ سلمان سياج جسر الغربان وهو يراقب البيت منتظراً غصون.. ونفسه تحدثه:

ـ «انها الآن تتأوه تحت ضربات مثقب الطالب».

أزاح الرؤيا من باله، وتأمل محلة نظران: النهر الاخضر الرفيع، الضحل، أعماقه التي تجيش ولا بد بأسماك (الزوري)[٣] و(أبي

(٣) الزوري: أسماك صغيرة جداً.

الزمير)، دغله المتكاثف، الحيات الصغيرات، مقام الخضر بجدرانه الطينية، وأكف الحناء يتذكرها ولا يراها، شباكه الضيق، المطل على مغسل ودكة الموتى، حيث يحلق الصبية بفضول، المخبز، دكان محيسن العجمي. راودته نفسه ثانية:

- «تأخرت غصون، ليذهب الى مكان آخر، أما تشبع هذه البنت من الأيورة؟».

سفحت الشمس مزيداً من بهر ضوء يرهف واجهات الشناشيل التي طالما منعت بتعقيداتها ولوج النور، تلك البيوت كأنها تصر على تعفنها داخل تابوت الماضي والظلام تاريخ خشب بشري يكتنز الذكرى والموت والوهم، ويسخر من الحاضر.

قلق وغموض يرّمض دواخل سلمان العبد، لم يستطع معرفة سرّ كل هذه المتناقضات، حتى لم يتوصل تفكيره الى كنه العلاقة، المتواترة بين صرخات الراقصة الفلبينية، مقتل علي، تصرفات أستاذ محمد الشاذة، أحلام ايبارا، جنون سالم نو، انحراف غصون، هموم حالوب، وتقلبات أمه - جدته. ألم يكبر بما فيه الكفاية؟ أكلما كبر، ازدادت الأمور غموضاً والحوادث تكراراً، ما هي الافكار؟ نزل عن السياج، ملّس حديده براحته، ثم لبد تحت الجسر. قعد. مدّ يده الى أيره. النشوة تخدر ساقيه، سال لعابه، اتكأ الجرف النهري، أسبل عينيه، راح في حلم أجساد أنثوية تدخل فيه وتدخل، تشتعل بين ساقيه، أيره ساخن ساخن، غيبته اللذة، تأوه، فاضت عصارة جسده، انبثق منيه كشروق الشمس، حلم لذيذ، ورعشة هدّت أعصابه، قلّصت عضلاته. أنحل جسده، غابت الصور، عاد العالم دغلياً، تسوره الغرائب والأسئلة.

داعب بأبهامه نبتة دغلية، دنا من الماء، غسل ساقيه، وبطنه وأيره وشعر عانته، عاد الى سطح الارض هلل للشمس وهللت له.

رأى على البعد كتلة سوداء تتدرج صوب محلة (الصبخة الصغيرة).. تلك أمه ـ جدته. قرر ملاحقتها، أما غصون فلن تخرج أبداً من سراديب الطالب ما دامت تشرب المني كصبارة تستيقظ على ديم.

أمه ـ جدته تجري خلال أزقة (الصبخة الصغيرة) ثم دروب (الصبخة الكبيرة) حتى نزلت باحة قريبة من «جبل خماس» واتجهت صوب محلة (المعصرة). كانت تتحاشى الشارع العام الموازي لشط العشار، وتتخفى أو تتوسل التخفي في الأزقة والحنايا...

.. انها تضمر أمراً غير معلوم، تبعها سلمان، شاعراً بجسامة وخطورة تجسسه المقيت عليها، هناك حدّ تخوم غابات النخيل، دخلت الأم ـ الجدة ظلام العالم، صندوق اسرار البصرة حيث المقبرة القديمة المنفلشة: مقبرة أم أسكندر.

* * * * * *

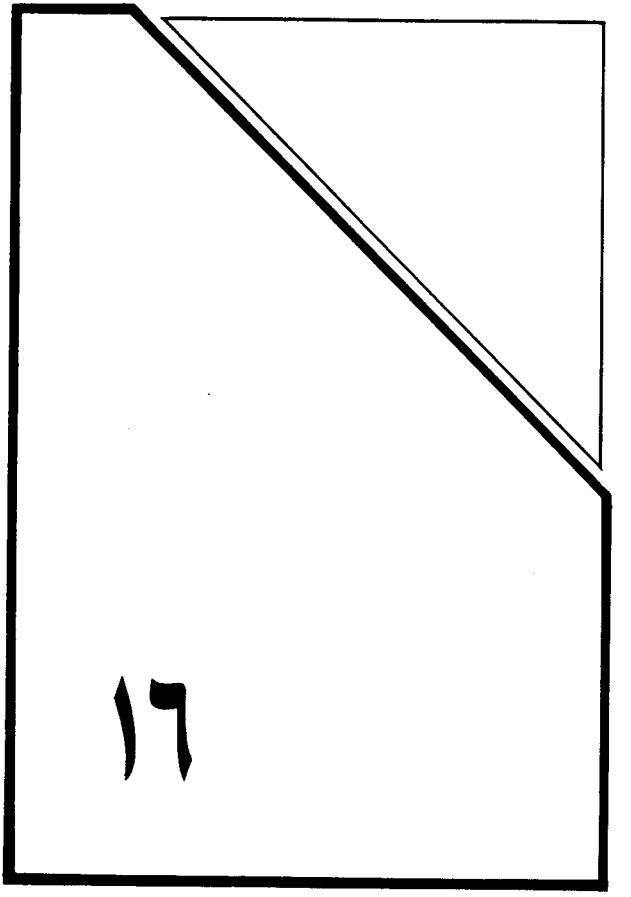
١٦

داخل رواق طويل: نفق قبري، تودع الأم ـ الجدة ضوء النهار، لتـركب مركب الظلمة، يكسو وجهها هدوء يخشوشن مع العتمة، فيفقـد طبيعتـه البشرية، نزولاً فوق درجات يكاد يضيق السقف عليها، وصولاً حتى المدفن. العفونة تلطخ ما تحت الأرض برائحة الموت، بقوة وجوده وأزلية حضوره المرعب، فيما تحت جلد الانسان، يعوي كل ثانية عواء وقحاً معلناً كل مرة نهاية شنيعة، كل ما فوق الأرض سينـزلق ذات يوم الى عمق اللجة اللامتناهية، الكريهة، يخـزرها الدود الحقير، ويأكلها التفسخ الزمني ولا معنى الحركة والسكـون، حيث الزوال الذي لا يعـرف احد كنهه: سيد تابوت النهاية.. الجدة ـ الأم تنتقل من الحياة الى الموت، تودع الأسرار، الزائلة للهباء.. تركع عند تابوت بدا أطول مما هو معهود، يميزه ضوء ميت، ضوء يحشرج مصفراً، مهترئاً، فتمتد أصابع اللاحياة الى غطاء التـابوت.. تزيحه، ينقلب، يسقط بصوت لا خواص له: صوت الجوف الميت للعالم الخاوي. فيفيض الضوء الفارغ من أي بريق وانعكاس سوى تنويره لحالته الميتة كونه قمر عالم سفلي، تكشف برودتـه القاتلة، وجه آدمي نائم فور موته، غير مستسلم تماماً لتلك القدرة التي جعلته بلا حياة، غير أن وجهه كان غمامة

من دخـان وصـدره نفثـة من بخار، وذراعاه شكل غباري تعقد، وتكثف داخل خشب التابوت: جثة من دخان، كان ذلك الحدث هو حاضر الطالب وتاريخه.

أنه هو وحده، تجمد زمناً دخانياً يابساً، حددت شكله هندسيات التـابوت، وزواياه. مدت أصابع اللاحياة ظلها الى الرأس، فكته، ساح الدمـاغ ذهبيـاً، ثم تبخر متسامياً تلوى ثم تجمع في راحة العجوز الجدة التي شرعت تمسح به مرآتها، فتطلي صفحتها بروح العقل الذهبي المدخن، حتى صار صقال المرآة، وجهاً من ذهب، لا يكاد الناظر اليها يرى سوى موجات دخانية والعجوز تردد بصوت محفور:

ـ «بسم الله الرحمن الرحيم، قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون، وان يمسسك الله بضر، فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء، من عباده وهو الغفور الرحيم..».

أدارت وجهها الى الشرق ثم الى الغرب، وسلمت على منكر ونكير، وتعوذت من الشيطان الرجيم ورددت:

ـ «بسم الله الرحمن الرحيم: لا اله الا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، له ما في السماوات وما في الأرض، من ذا الذي يشفع عنده الا بأذه يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمـه الا بمـا شاء وسـع كرسيـه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم.. صدق الله العظيم..».

وما ان انتهت من آية الكرسي، حتى هرعت من القبر مسرعة،

تتطاير وراءها عباءتها، كانت كلما اقتربت من ضوء النهار فقدت أعضاءها خشونتها وتيبسها، ونبضت حياة.. اكتسى وجهها لحمه ودمه، الا ان أخاديد شيخوختها عكست للوهلة تلك لوناً ذهبياً، لون الشمس الذي واجهها حال مغادرتها سرير مدفن الأرض الى وسادة السماء. وما ان رآها سلمان فزعة تركض، والمرآة تلصف في يدها. ركض امامها ليواجهها، صرخت به مرعوبة:

ـ «أسرع وأنقذ غصون.. أسرع يا سلمان».

أعطته المرآة، ضمها الى صدره، حال سماعه زعيق واصطفاق أجنحة وهيجان شقّق السماء، اختفت الأم ـ الجدة وراء البساتين.. السماء تغطيها الخفافيش، السماء تمطر خفافيش، أجنحتها الدبقة تلتصق على جذوع النخيل، كتلها اللحمية الرخوة تدب على جروف الشطوط، تزحف مثل عجين لحمي، عيون الخفافيش تبرق لؤما ينوش المخلوقات البشرية، تطير وتحط ثانية من الأرض إلى السماء، ومن السماء إلى الأرض.. السماء مرآة فضتها أغشية الوطاويط الراجفة، بيوت الشناشيل انكمشت تحت وطأة دبق الأجنحة، والأجساد الحيوانية الرقيقة الجلد، المقززة.. ومن وسط الأعالي، يتوسط ملايين الخراطيم الماصة، والأفواه اللزجة، والأصوات الموصوصة، والعيون الشريرة الغازية، العدوة انفتأ وطواط ضخم الجناحين تتقاطر منها (من جناحيه) قطرات أسيدية تتموشر في ضوء الشمس وتلونه بزرقة سامة... سلمان يركض، يضرب الاجنحة الخفاشية، حدة، بكفيه، تتشبث خراطيم الوطاويط برجليه، يركلها، يدوس عليها، يصيح:

ـ «يا أمي.. يا أمي ستأكلني الوطاويط».

تعضـه الأسنان الصغيرة الحادة، يلكمها، يصارع حشودها الطائرة قدامه، يوجهها ذلك الخفاش العملاق الأسود الناز سماً، في العلاء بيوت الصبخة الكبيرة تتناهشها أسراب الغزو المنظم، بناء مدرسة (الموفقية) يتهدم، فلا يبرز عن غرفة المنسقة غير خشبات المقـاعد المدرسية، وملابس ممزقة لأطفال هربوا. (جبل خماس) يتحول الى خوذة ملأى بخراء الوطاويط. سلمان يندفع بكل ما فيه من قوة، عبر زحمة اللزوجة. الأرض تدبقها سموم البطون المرنة، وزغب الجلود التي داستها الأرجل الهاربة، والعربات المنقلبة...

شبح طائر هائل، يغطي سماء المدينة، انه شكل جموع ملايين الخفافيش.. يجتاح الحارات والازقة والبيوت، والساحات والمدارس والجـوامـع. سلمان وحده سيبقى فيها حتى يصل مبتغاه، حتى يقبض على سر الشر الكامن في غزو النفوس ألتاريخي، في جمهرة الأفكار الوطواطية، في خسة النوايا القابعة داخل تابوت المدينة... الى هناك سيمضي حيث سينقذ البغى غصون.

ولمـا كانت الأزقة محشوة بالوطاويط الزاحفة والطائرة والناطة تعـيّن على سلمـان ترك الصبخـة الكبيرة والاتجاه بمحاذاة شط العشّـار خلف الخرابة المقدسة، حين عثر يوماً ما على طفل لقيط مخنـوق.. هكـذا ذات صباح غادرت امرأة تلك الخرابة بعد ان اشعلت في جوفها الشموع، وحنّت حجارتها العتيقة، وشدت الخرق الخضر في نتوءاتها العاطة بعفونة نزيز مائي أخضر...

لا أحد يدري سرّ قدسية ذلك البناء الخرب سوى أنه قد يكون مزاراً لولي، أو خطوة للإمام الخضر، ولربما أراد أحد الدجالين ان يتكسّب فدفن حماره وادعاه قديساً أو ولياً، حسبما يغمز الخبثاء

في محلة الصبخة الصغيرة، ولا أحد يدري سرّ كل هذه القدسية سوى أن رأس الطفل الأزرق الميت أهاب بالناس أن يدفنوه بعيداً في مقبرة الأطفال المنسيين. يتذكر سلمان الطفل الميت يتراعى له الان يركض معه، يشجعه، يشده من دشداشته، طفل كبير، رأسه أزرق، رقبته يحزها حبل، خُنق به:

يصرخ اللقيط:

ـ «أمي.. أم الجميع».

سلمان يصيح:

ـ «وما هذه الخفافيش؟»

ـ «إنها أرواح الرجال الذين عاثوا بكس أمي.. وأمك».

سلمان مبلبل الأفكار يهتف:

ـ «ولماذا تهاجمنا يا لقيط»؟

ـ «الحقيقة في كس أمك، وليس في السماء.. يا سلمان».

.. صرخ اللقيط ثم اختفى..

ما فهم سلمان وما درى الا وتلك الفتاة التي تمتلك قرداً يقال يضاجعها، تخاطبه من شرفة الشنشول وترميه بالقرد، يتهاوى القرد على الأرض، ينظر اليها سلمان يعيط بها:

ـ «لماذا ترميني بجسد قردك الميت؟».

كانت تبكي وتتأوه وتجأر:

«تعال ضاجعني بدل القرد.. تعال.

ضاع بكاؤها في زعيق الوطاويط التي هاجمتها، وجرتها الى داخل البيت عنوة..

عبر جسر الصبخة الأخضر، آه هنا السماء أصفى، الحيوانات طارت عالياً، والشناشيل نفضت عن خشبها العتيق ومظلاتها ما بقي من الجلود المطبوعة، غير أن الشوارع ما برحت خالية، وجسر الغربان بات قريباً جداً.

أوقفتـه لحـظة جامـدة خرقاء، لحظة جناحي الوطواط الكبير الضخم النازّ سماً، وسوائل أسيدية، اللحظة التي فجرتها صرخة غصـون، حين تهاوى وجهها تحت ضربات الجناح الكاسر، وهي تنتفض رعبـاً واشمئزازاً. الجناح يلتصق بقوة على وجه غصون، الوطواط يحشرج نازفـاً سمـه على ثيـابها وجسدها. وهي تنهار، تخرمش الجسد الحيواني الخبيث البشع، تحاول فصله عن رأسها...

وقف سلمان ازاءها، ركز مرآته الذهبية على الوطواط اللاصق.. انعكست الاشعة الذهبية على جسد الوطواط، فتناثر فتاتاً محدثاً مفرقعة هائلة، فذاب جناحاه واحترق زغبه وتساقطت مخالبه فحماً، تصاعد من بقاياه دخان، وماتت الروح الشريرة لأعتى نوايا المدينة.

تمددت غصون على أسفلت الشارع. دائرتان زرقاوان تطوقان موقيها، وجهها موروم، وثمة دمعتان على خديها، تجمدان كثؤلولين شفافين.

دنا سلمان منها. قالت:

ـ من؟

ـ سلمان.

ـ شكراً.

ـ وصلت متأخراً كعادتي يا غصون.
ـ أهي المرآة الذهبية؟
ـ بلى.
ـ أصبحت عمياء.
ـ أعرف ذلك.

انقشعت السماء، تباهت الشمس على تخوم الحارات المختلية بهدوئها. تخلل الصمت القديم، للحارات القديمة مسامات شط العشار، سارداً للضفاف حكاياه عن بقايا الآدميين الذين رحلوا من هنا، وتركوا أحفادهم يعانون رداءة ضجيج العالم وكآبة رنينه.

إلاَّ ان هذا الهدوء، وذلك الصمت ما كان ليعبر عن شيء سوى ملمح ماض من مواضي أزقة المدينة الملتحفة بأسرارها وموتها البطيء، وحياتها الخفية.

* * * * * *

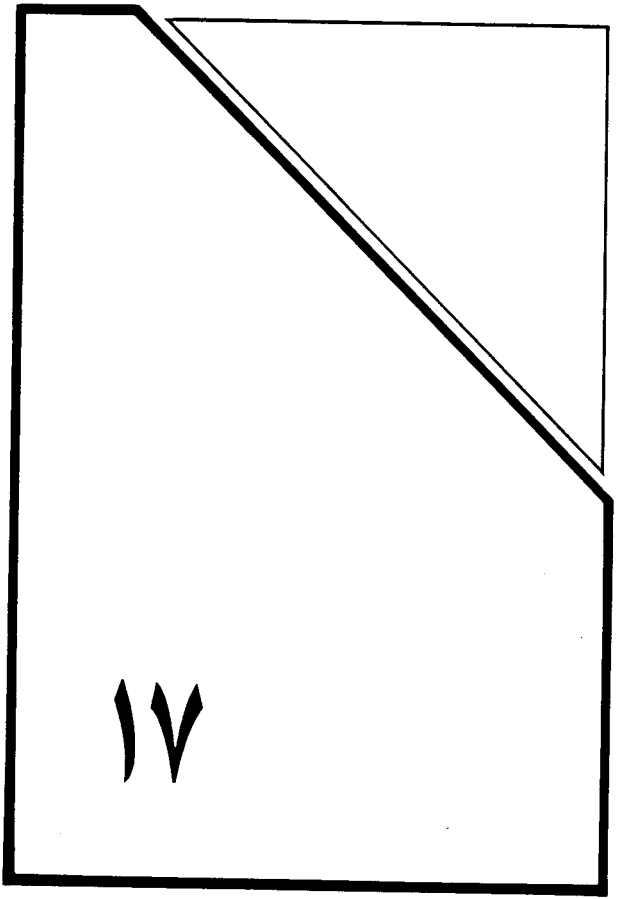

١٧

الدنيا تمطر نفاشاً، كرات من (نفاش)[1] تدور في الفضاء مروحيات من زغب قصبي، خفيفة ناعمة، تستقر على مياه شط العشّار، أو على السعف، أو على سياج جسر نظران.

كان حالوب يراها مطراً أصفر.. شارة من السماء كأنها.. وضع يديه على عينيه، اختض جسده ناحباً الا ان عينيه كانتا جافتين. يداه منقبضتان، وبكل هدوء تبول في ملابسه ثم أحس براحة لذيذة بعد أن أطلق رياح بطنه..

جمع من الشباب قرب دكان علاوي القزم يثرثر ويضحك، ومحمود الطبّاق خدر في زحمة (المخبز) على ردفي أحد الصبيان ملتصق بهما التصاق القراد بمؤخرة حصان. أستاذ محمد قاعد أمام المرآة، بين جدران غرفته نصف المعتمة يشاجر نفسه ويضحك على أيامه..

مدرسة ثانوية البصرة تقرع ناقوس الدرس دن. دن. دن. ما لبث

(١) النفّاش: كرات زغبية تطيرها الرياح من قلب أدغال القصب.

ضجيج الطلاب ان خفت.. زاغ نظر حالوب الى دكان ابن عواشة، ثم انحدر الى بستان ساهي، قاصداً نهيراً جافاً تتعرشه نباتات العاقول، والشفلّح، قعد تحت شجرة خروب وعب نفساً طويلاً من سيجارته ثم رماها.. ارتاح كاد ان ينام.. انتضى موسى حلاقة من جيبه وذبح وريد يده اليمنى، انبطح على ظهره، ثم ذبح وريد يده اليسرى.. كان يسمع أصواتاً متلاحقة متلاطمة، الوجوه تنهمر عليه، وجه أبيه يهتف: ناولني الحجر، هات، ناول. ثلاثة وجوه أخرى تقترب، تصرخ به، بأبيه. تناول أبوه الفأس، الا ان الوجوه الغريبة دكت رأس الأب، وعجنت مخه بالتراب. فأس أبيه ملقى قرب كسر الرأس ونثار المخ واللسان الأصفر والعينين المخضوضبتين دماً.. صوت يعيط.. صوت أمه:

- «حالوب اركض الحرامي على السطح».

تناول الصبي حالوب سيف أبيه، شهر اللص خنجره وصاح ضاحكاً:

- «على مهلك يا حالوب، لم أسرق سوى برطمان مخلل».

شق حالوب الهواء بسيفه، أيقن اللص جدية الموقف، قفز الى نخلة (ساير) تحاذي سطح الدار، محاولاً الهرب، ولكنه انهار من اعلاها، فانكسر ظهره.

أصوات.. أصوات: حالوب اركض الكرة بين قدميك.. سدد.. هوب.. كَوول.. عربة من خشب تحوي قدراً يغلي، يفور منه البخار وحالوب يصيح ويصيح:

- «لبلبي يا ولد.. حار ومستوي».

أصـوات.. أصـوات. بنت صغيرة، عيناها سوداوان، وشعرها أشعث تبطبط:

ـ «عمو حالوب اعطني شعر بنات».

يعطيها وينادي:

«شعر بنات وين أولي أووين أبات
أبات بالدربونة خاف تأكلني البزونّة
شعر بنات. وين أولي أووين أبات».

أصوات.. أصوات.. جمع من الناس و(المعيديات)[٢] جئن من جبل البلوش، كي يفركن جثة زوجة حالوب بورق (السدر)[٣]. كانت ابنتـه غصون تبكي، وحالوب يخزر السماء بلا فائدة ولا رجاء.. غصون تقول وهي تنحب:

ـ «أمي...».

«تأذيني يا ولفي ليش تاذيني
فراكَك صعب يهواي بالكَلب چاويني».

كان حالوب ينـزف وهـو يردد الاغنيـة بصوت واهن، النسيم يهسهس بين السعف، و«أبـو الزمـير» يلبـط في ماء النهـر، يداه حمراوان قانيـان، تحته بركة دم تكبر وتكبر.. مثل لون عمره، مثل حظ غصـون، وجهه صينية مبلولة بقطرات مطر خريفي، جسده منحل، وبرودة لذيذة تسري على طول عموده الفقرى، تذكر ذلك

---

(٢) المعيديات: نساء عشائر المعدان، القاطنة أهوار شمال البصرة.

(٣) السّدر: هي شجرة النبق التي اعتاد العراقيون غسل جسد الميت برغوة أوراقها والماء.

اليوم الأسود، حين سقط تحت الشمس و«الاسطة»[٤] يصرخ:

- «حالوب ناولني الطابوقة».

تناول حالوب الطابوقة، وضعها على بطنه، وضرط، كأنه يجاوبه.. حينها درى الاسطة ان الشيخ (حالوب) قد انتهى تماماً.. وحالوب درى (أيضاً) ان العمل بالنسبة له حمّى، والحياة جرجرة وعرعرة.. وآخرها قبر بسبعة أشبار، وكيلة تراب، وكومة بكاء والله يرحمه.. ثم ينتهي الأمر...

حالوب يجرجر جسده ببطء نحو النهر، قوته تغادره وئيداً. صوت:

- «أين غصـــون؟.. جن لما افتقـدهـــا، غير أنهـا خرجت من (الكنتور) مكركرة:

- «بابا أنا هنا»..

آه ما أحلاها ابنتي التي ستعيش بعدي، ما أحلاها. دق جرس مدرسة ثانوية البصرة.. رن.. رن.. رن.. رن..

كان يرى الطلبة، من خلف الشبابيك، وقدماه تكادان تلامسان المـاء، لم يعـد يحس بشيء حينما انزلق نهائياً الى النهر، تعلقت نباتات (الشلنت) برأسه، والتفت حول جسده... الجريان المائي يدخـل أنفـه، طعم فمـه مالح.. بقبقة الماء ما سمعها سوى طير

---

(٤) الأسطة: كبير عمال البناء وأمهرهم.

(زيطة)[٥]، وهدهد نشط يطير فوق صفحة النهر، يداور، لاقتناص فريسته من أسماك الزوري.

استقبل قاع النهر جسد حالوب الهامد، واحتضنه، رفّت حشرات (رعّاشة) على قصبة الدغلي، وأزت فوق مويجات ما تبقى من غطسة الميت، وداعاً للسنين التي توقفت تماماً.

* * * * *

عيناها جزيرتان موحشتان، تسكنهما العتمة: عينا غصون العمياء، الآن وأبداً، لا سماء هنا في الحدقة، لا نهر ولا ضياء. ظلام يستبطن ظلاماً، ودموع تسيل كمطر ليلي، وخوف لا يدانى من المتحركات. صار المجهول حقيقة! يناديها من حافة سوداء، إلى ليل أخرس، جسدها صدفة مدفونة، وأفكارها شمس باردة في كهف منسي.. أذناها تلتقطان خطوات سلمان الذي شد على يدها. ماذا أمامها، وأي شيء خلفها؟ السماء أما زالت السماء زرقاء، تتلقف النهار من شبكة الشمس؟ أم غربت وبرد الكون؟ هزتها قشعريرة برد، رغم حرارة الجو، علقت كرةالنفاش بشعرها، عصرت يد سلمان وقالت:

ـ «سلمان.. بردانة».

تعجب سلمان، ظنها تخرف:

ـ أكاد أموت من الحر.

ـ سلمان هل تحبني؟

---

(٥) زيطة: طير صغير سريع، ينطنط ولا يستقر، ثم يطير فجأة.

ـ نعم.
ـ أحقيقة ما تقول، ام تشفق عليّ؟
ـ حقيقة؟ صدق، وما هي الشفقة؟
ـ لأنني عمياء.
ـ لا أدري.
ـ الى أين تأخذني؟
ـ الى البيت.
ـ ولكن أبي مات!
ـ حالوب مات.. آه صحيح.
ـ لماذا لا نعود؟
ـ إلى أين يا غصون؟
ـ إلى النهر.. قه قه قه.. قه قه قه قه قه..

غصون تقهقه وهي تدور على نفسها، ثم ترفع ثوبها حتى ركبتيها وتقعد على الرصيف، يسيل خيط لعاب من طرف فمها، تزيح فستانها تماماً، وتعرض فرجها للمارة وتعيط:

ـ تعالوا.. ضاجعوني يا أولاد القحبة.. تعالوا.. تعالوا ضاجعوني.. ئه ئه ئه.. ضاجعوا العمياء أيها الخفافيش.

نشجت ودموعها تحرقها، تترقرق على خديها، مثل ليل يمطر في ليل، لا نهار ولا ضوء، والنخل والطيور وسلمان والطالب والسوق والشناشيل كلمات امحت على لوح أسود، سارع سلمان وغطاها. بل وقع عليها باكياً، يتوسلها أن تقوم، أن يوصلها الى البيت، ضمها الى صدره صارخاً:

ـ أنـا لا أشفق عليك، لا أعرف معنى الشفقة، بل أنا أحبك، ونسيت أن حالوب قد مات.

كان ذلك منـذ زمن، حين رأيتهم يغسلونـه بورق السـدر لقد نسيت...

صرخت والزبد يرغو على شفتيها، اندلق ثدياها مثل سروالين على حبل غسيل:

ـ أيها الزنجي العبد، تريد أن تأخذني كي تضاجعني.. أنا لا أضاجع زنوجاً أيها القواد.. أنا لا أضاجع عبيداً. أيها الكلب الأسود.

كان هناك شبح طويل، متلثم بكوفية، يلبس دشداشة لا تكاد تغـطي ساقيه، قدماه حافيتان، ينتضي سكيناً طويلاً بيد وأكياس نايلون باليـد الأخـرى، تتبعـه عدة أشبـاح انبثقت وراءه دفعة واحدة، من (مقام الخضر)، من بيت (باشا النقيب) من (جامع أبو منارتين)، من بيت (الحاج كاظم الأعور)، من البساتين.. وأغوار الدغل والمياه...

سلمـان وغصـون يركضان هاربين، في ظلال غابة من ظلال، أشجارها تظلل أشجاراً، وكرة الشمس تتدحرج أمامهما.. ينفذان عبر فجوات الأغصان، تغور أقدامهما في وحول الاراضي التي لا تنتهي، وحـولها السماء ممزقة، طائرة فوق قمم بساتين النخيل، الأشباح تخترق الظلال، السيقان بلور، والهواء مرايا تعكس مزقاً من المـطاردة. تمزق الأشواك حاجبي سلمان، تقع غصون، يقع فوقهـا، يحتضنها، تسير الأشجار، الغيوم خلف جنازة الصمت، وتلتف الأغصان والاوراق على نعش النهار.

تقوم غصون صغيرة، ثوبها الأزرق مرقع، تنظر إلى حالوب.... حالوب يتقرفص، يتوسط باحة الدار، يدخن سيجارة وكأن السيجارة تدخنه، تقول:

ـ «بابا».

يقول:

ـ «أولاد القحبة يظنونني أخبىء كنزاً أنا الفقير».

أولاد صغار ينظرون من شباك (مقام الخضر) إلى دكة الموتى، الى جسد حالوب الميت، يسدون أنوفهم من رائحة النتن، الرجال يمسدون الميت البارد، قائلين لأنفسهم:

ـ «أين خبأت الكنز يا حالوب.. آه أيموت سرك معك؟».

النسوة يطردن الأولاد، وعيونهن تزوغ إلى أير الميت الضخم متحسرات:

ـ «آه لو كنا ندري يا حالوب أن رجولتك بهذه الضخامة.. آه.. لو كنا ندري»...

تنحني الأشباح على جسدي سلمان وغصون الملتصقين التصاق السماء بالأرض، على أفق موحل بضوء طيني، الاشباح تفصل الجسدين وتقطع (غصون) كما تقطع زوجة الباشا قطعة الكاتو.

فتح سلمان عينيه. النهار ذاب، شوشته الأحلام، والليل عباءة لبسها كائن مقنع. مصابيح الشارع شاحبة، معلقة كبيضات فاسدات، على عش لقلق مريض.. ونهر العشار دودة ميتة...

لم تكن غصـون الميتة موجودة في البقعة التي شملت حزنها، سوى بركة من دمع ودم. كانت ثياب سلمان ملطخة دماً... أشجار النخيل المنحنية إلى الشط، تتدلى من سعفها أكياس نايلون تقطر دماً.. وصوت حيوان يقرط عظاماً.. ارتعب سلمان. راح يجوس القبر الليـلي المعلق على سعفـات النخيل، حيث قطع (أخوة غصون)، أختهم أشـلاء وعبـأوهـا بالأكياس، وعلقوها على النخلات شعراً ولحماً وعظاماً ودماً، تناثر على وجه محلة نظران، كما يناثر النهار نفـاشـه في الفضـاء، كمـا الليل يخفي أسراب خفافيشه المارقة برحلاتها السرية، الى برك الدماء حيث تستحم.

* * * * * *

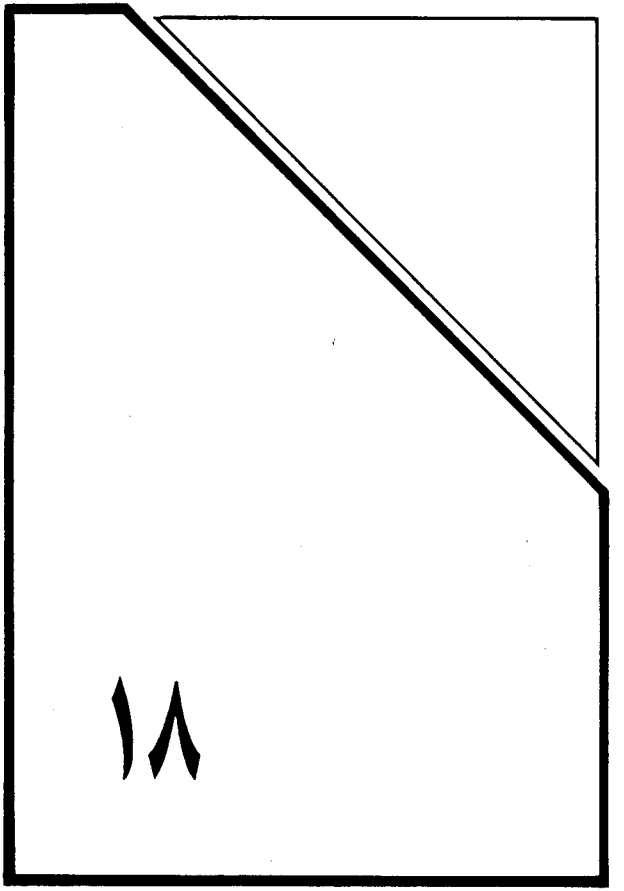
١٨

الشمس تلملم أطراف ردائها، وترحل خلف بساتين كوت الحجاج، شعرات من خصلاتها، تتعلق بتيجان النخيل، بقضبان السكة الحديدية، أو متناثرة طائفة على مياه نهر الخندق، والمساء يكر، يتوالى كأمواج بحر صمغي، تلتصق بصخور ساعات العصر الذهبية.

كلب وحيد عقص ذيله بين فخذيه، يتشمم العشب بين فراغات خشبات السكة، جمرات موقد (ايبارا) تتوهج، أباريق القهوة تسود حال خفوت الجمر، وتلصف حين ينفخ الشيخ الجمرات، أو يهفهفها بمهفة قصبية.. يمج الشيخ دخان سيجارته، يمج قلقاً كأنه يفرغ صندوق أفكاره، وحيرة أقوى، وأَحَدّ من موسيقى البساتين، جعلته يرتاب فيما سيقدم عليه..

ضائع بين الحكمة التي رسختها العزلة، والعذاب الذي أملته العزلة ذاتها عليه. أين الناس؟ ماتوا، وأينهم؟ ولدوا وقتلوا ورحلوا...

كم يخاف حين يجن، وكم يشك وينكمش حين ينور الصباح

عربات القطارات الماضية، وكم يرتعب حين يذوب السعف والشط ومدرسة الأميركان، والكلب الأرقط الماثل دوماً في فنجان قهوة المساء المرة.

وكم حدث الناس عن الأمل وهو بلا أمل، وكم قال بالحكمة وحكمته محض فتات سنين منثورة على شراشف نفسه، فتات تجارب اطارتها الأيام مصادفة، وسمرتها صوراً، على جدران ماضيه، محض ذكريات، محض ماض يولد ماضياً، ما هو الماضي؟

وكأنما تجمعت جذور النخيل على ضفة النهر، ووريقات الدغل، وسيقان الزنزلخت، وزاحفات (الخبّان)، وأعشاب (الشي اسمه الله) في برج من دخان أسود، تفجر من باطن المياه، ملتمساً روحه، برقصة ماجنة. تتراوح الأوراق والأنساغ والسيقان والجذور آخذة شكل كف والزهور مصابيح، أضواؤها أشواك، وقشور الجذوع أردية لقميص الليل، وتاج السعف قناع ضاحك تبرق على جبهته ماسة تبكي وتضحك، قناع لا يفكر الا بسؤاله الابدي:

ـ «ما هو الماضي؟».

دنا سلمان العبد من الشيخ ايبارا، حاذاه، ايبارا لا يحير جواباً. سكوته قاس كالليل الضائع بين نجوم محتارة. كان يقهقه ويبكي كالمجنون، ولكن بخفوت، وهدوء ذلك الانكليزي العتيد المنتحر تحت شجرة النبق.. كلمات ايبارا تسيل من فمه، كما لعابه، رغوة من نار:

ـ ماتت غصون.

ـ وهل عرفت يا عماه؟

ـ رأيتها للتو، على جبهتها ماسة تضحك وتبكي...

ـ قطعها اخوتها، وعلقوها على النخل غسلاً للعار..

القهـوة تتـأرج، عطرهـا فواح، انعكس وهج الجمر على وجه سلمـان العبد، ثمة انتفاخ تحت عينيه الصفراوين، وخيط ملح، وشم خده، حتى ما تحت أذنه، مثل جرح قديم.. شارباه الخفيفان يبللهمـا لسانه اللعوب، أذناه الصغيرتان ترهفان السمع، ونظرة حزينة، قاهرة، قلقة لا مبالية، مستوحشة، تعبى تترنق على وجهه، وقسماته اخشوشنت فبانت خطوط متكسرة عميقة حفرت جبهته. وأنفـه الافطس، يعب الهواء، يشخط تنفسه مثل مريض بالسل. سلمان شاخ قبل أوانه، عاش زمنه منذ زمن بائد منسي، مثل رجل يوشك على الرحيل كل مرة، فينتظر وينظر وينتظر، حتى انتظر العمر كله.. كان يسأل نفسه كل مرة:

ـ «متى أرحل، وأخلص، متى، ولكن إلى أين؟

أتترك كل شيء.. أرض الله واسعة، ولكن الى أين؟».

مسـح سلمـان دمـوعـه بكم دشداشته، فانطبعت نظرته على القماش، فركها امحت.. النظرة ذاتها تسأل السؤال الذي أكل قلبه:

ـ «لماذا يموت الناس، لماذا يقتلونهم؟».

كان أيبارا جالساً، متربعاً، مثل متعبد في جامع الفقير، وسلمان يقلب الجمر ويقول، كان يتحدث للجمر أكثر مما يتحدث للشيخ:

ـ سأقوم بما عزمت عليه.

ـ ستموت أنت أيضاً.

ـ كلنا سنموت.

ـ معلوم.

ـ أمـور كثيرة لم أعرفها، ولا أدري ما هي سوى انني أحس بالضيق والمرض.

ـ ليكن الله في عونك.

ضوء القنـديـل داخـل كابينـة القـطار القديمة (بيت ايبارا، ومهجعه)، ذلك الضوء يمسح الأشياء، يجعلها وهمية، غير حقيقية، كأنها وضعت للتو في غفلة من الضوء، وكأنها تبغي الرحيل تعلن عن نفسها بظلال كئيبة متراقصة: السرير ظل، وجرة الماء ظل، والطاولة ظل، والصندوق المرصع بمسامير، على شكل زهرة مفصصة له ظل شجي اذا ما فتـح سينـط من داخله ذلك الجني المجنون الذي سيصرخ بالكون:

ـ «شبيك لبيك عبدك بين ايديك».

فتح أيبارا الصندوق، ولا جني. المحتويات مبعثرة، ولا قمقم، سوى قنينـة أحكم قفلها، وكما يبدو أنها عبئت أسيداً منذ زمن طويل لأغراض معينة تتعلق بصناعة الأسلاك والمسامير ولا يدري أيبارا سوى أنها وحدها، مع علبة سجائر انكليزية وقفاز، وبضع قطع بسكويت متحجر، تركها الانكليز حين رحلوا، وغادروا البصرة، قبل عشرات السنين.

لفّ القنينة بخرقة زرقاء، مثلما يداعب حاوٍ أنياب أفعى قاتلة..

ثم غادر الكابينة قلقاً، ناوش سلمان القنينة وقال:

ـ احترس حين تفتحها، أو استعمل قفازاً، انه أسيد التيزاب الحارق.

ـ وهل يقتل؟

ـ يشـوه إذا سكب بكميات كبيرة على الجلد، وقد يميت، واذا صدف واندلق على يديك شيء منه فاغسلهما بالماء البارد عدة مرات وراجع (الخستخانة)[1] فوراً.

فتح أيبارا القنينة حذراً ونطق كأنه يفتح باباً سرياً:

ـ أنظر!

سكب قطرات من السائل على فحم الموقد، بقبق الأسيد وفار، فأحدث فجوة مريعة.

ـ انـه قاتـل.. الشيطان سكن هذا السائل، الشيطان بقرونه النارية وروحه الماحقة.

* * * * * *

(١) الخستخانة: كلمة أعجمية وتعني المستشفى.

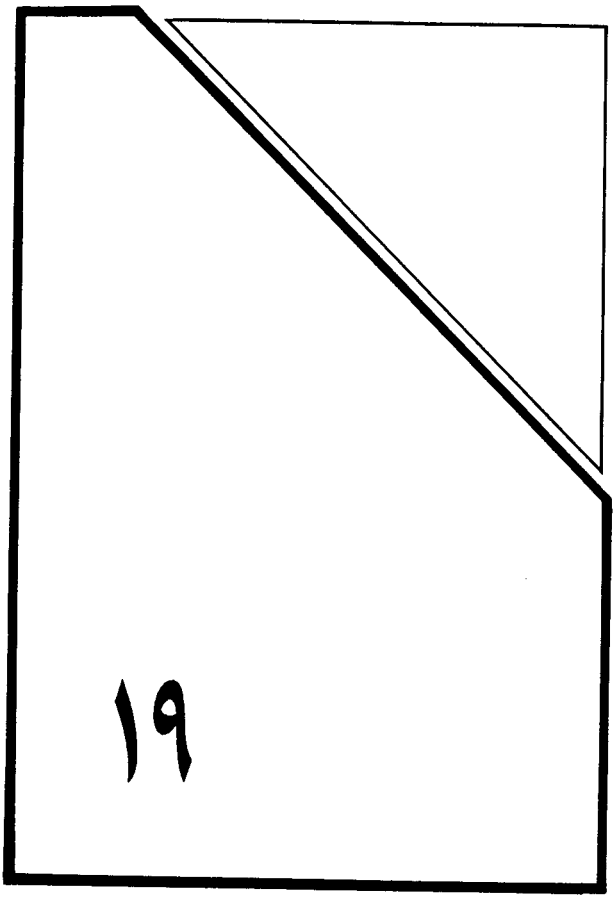
١٩

دروب الظلام التي عاد منها الى كوخه، هي دروب روحه: درب السكة، درب الشوك، درب نظران العتيقة، كم مشاها! كم تملاها وتنطنط فوقها! وها هي اللحظة، تضحى شقوقاً معتمة تتعرج بين بساتين روحه الشوكية، كان يسمع (دماما)[1]، ورنين صنوج تلاه لطم أيد، الهواء يردد مع شوشرة النخيل ترديدات متقطعة لها في نفسه وقع خشوع وحزن، اليوم هو العاشر من محرم، اليوم يوم عاشوراء.

«حيدر.. حيدر.. حيدر.. دم دم.. دم دم.. دم دم».

نطت كرات سود من رأس سلمان، كرات أفكاره، المتفتقة عن أهله مواكب عزاء نظران، وصور جده وجد جده مرسومة على رايات المواكب الحسينية، مطرزة فوق اسم الشهيد سيد شباب أهل الجنة، الامام الحسين، ورماح الرايات تعلوها أكف معدنية، أكف قمر بني هاشم «الامام العباس».

---

(١) الدمام: الطبل الكبير، وكان معروفاً أيام عاشوراء في العراق أن يتقدم ضارب الدمام، مواكب العزاء الحسينية.

كانت هنـاك جيوش أعقبتها جيوش، وصحراء كربلاء التهبت مرمضـة، والخيـام حاصرتهـا غمامات سيوف، وصراخ هيّج نهير كربلاء، والعباس حضن قربة ما لبثت ان ثقبتها النبال، فما سقى عطاش أبنـاء بيت رسـول الله، تناوشوه بالنبال، فقاتلهم، ضرب الأفق، شطره شطرين، حتى برز له لعين كان قد ختل خلف نخلة، فضربـه على أم رأسه بعمود من خشب. رشش دمه السماء، له الامام الحسين بكفيه وصاح بالكفار: هذا دم العباس يا كفار، يا لقـطاء يزيـد ومعـاوية، الآن انقصم ظهري، وقلّت حيلتي، وكثر اعـدائي، الا من معين يعيننا، ألا من ذاب يذب عن حرم رسول الله.. يقترب سلمان العبد من الامام الحسين، كان الامام شاهراً سيفاً بتّاراً، راكباً جواداً أصهب.

صاح سلمان مع صيحة الإمام:

- يا رسول الله اليوم يومي، ان كان دين محمد لا يستقيم إلّا بقتلي فيا سيوف خذيني، هيهات منا الذلة...

وصاح مع صيحة الإمام:

- يا شيعة آل أبي سفيان ان لم يكن لكم دين ولا تخافون يوم الميعاد، فكونوا احراراً في دنياكم وارجعوا الى أحسابكم، ان كنتم عرباً كما تزعمون.

العطش يقرض شفتي سلمان، روحه مالحة، جسده يابس مثل عاقولة نشفت جذورها.. مسح الإمام الحسين على رأسه وهتف:

- الموت أولى من دخول النار، والنار أولى من دخول العار.. أنت يا من ستدخل الجنة بحلة بيضاء، وجبهة بيضاء، وستُروى من

مياه الكوثر، واعداؤك تلوب احشاؤهم بشراب الزقوم.

بكى سلمان، وخرج جوابه:

ـ «والله ما أختار على الجنة شيئاً».

براري كربـلاء تجفف الدمـاء ونهيرها يشرب دماء رؤوس آل البيت، ويزيد على عتبة من مرمر وعاج في الجامع الاموي يضاجع حسناء كوفية وينشد مخموراً:

«لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء، ولا وحي نزل».

وعبيد الله بن زياد بن أبيه يغسل باحات قصره، بدم مسلم بن عقيل فتصدى كثبان الحجاز، بصدى كلمات رسولية:

ـ «حسين مني وأنا من حسين».

يفزّ يزيد من ضجعته، يموت على كس الكوفية، ويصلب على حلق شيطان له ألف لسان من نار، لكل لسان ألف سفود، ولكل سفود ألف شعاب من شرر. يطبق الإمام بسيفه على جيوش الشمر بن ذي الجوشن فيذبح منهم سبعين ألف فارس، فإذا باللعين ابن اللعين يرميـه نبـلاً، يجرحه، فيقع الإمام عن فرسه، تتناوشه السيوف، تقطع يده اليمنى، يقاتلهم باليسرى، تقطع اليسرى، يشيل السيف بأسنـانـه، يقـاتلهم، يضربونه بالمقلاع، يهوي، يلتمس التراب. الارض حمـراء قانية، ينظر الإمام الى آل البيت: عطاش كربلاء، يبرك اللعين ابن اللعين الشمر بن ذي الجوشن، على ظهر الإمام الحسـين، ويحـز رأسـه، تنـدب زينب واهنة، مكسورة، مهيضة الجناح، وتعيط ملتاعة:

- «واحسيناه.. واسيّد شباب أهل الجنة واشهيداه...».

مسح سلمان دموعه، وهو يتعثر على نهير بستان محمود مردداً:
- «واشهيداه..»

أصوات أنين وبكاء، ولطم على الصدور تتناهى اليه مع ضربات السلاسل على ظهور النادبين، الباكين على الحسين، وحشرجة الآلام تلتاث مع ذبذبات العزاء الخاشعة، النادمة، المريرة، التي دمرها تأنيب الضمير.

- «حيدر.. حيدر.. حيدر.. دم دم.. دم دم.. دم دم..».

كانت الأم - الجدة، تلفظ أنفاسها الاخيرة، جسدها ينتفخ، ساقاها تتورمان، تصيران كرجلي فيل، تتلعثم بتمتمات وآيات قرآنية، ترى سلمان واقفاً، تدعوه عيناها للجلوس قربها.. عرف سلمان أنها نهاية أمه - جدته عدّل الوسادة، تحت رأسها، سقاها من (الشربة)[٢]، سال خيط ماء على خدها، فرقبتها وزيقها.

كانت رائحة الموت تفوح منها.. (فوطتها)[٣] ملمومة تحت رأسها، وشعرها الأشيب المحمّر المحنّى رطب يلتصق بجلدها الرقيق، المنمش بنمش الشيخوخة.. قبضت أصابعها المعقدة السلاميات على يد سلمان وقالت له:

- «سلمان حبيبي وقرة عيني يا من ستشيل جنازتي، تزوج».

---

(٢) الشربة: ابريق فخاري، تعود أصول صناعته الى أيام السومريين.

(٣) الفوطة: شال أسود، خشن الملمس تلف به المرأة رأسها، ويتدلى على صدرها.

بكى سلمان:

ـ نعم يا أمي.

ـ سلمان حبيبي وقرة عيني أنا راحلة أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وأشهد أن علياً بالحق ولي الله...

كانت قدماها ترتجفان، والروح كما يعتقد سلمان تخرج من القدمين شيئاً فشيئاً وتبيض العينان، ويشمع الوجه، فتحت الام ـ الجدة فمها، كأن هناك من يخنقها وحشرجت:

ـ سلمان حبيبي وقرة عيني أحرق الكوخ، وأحرقني معه، ذلك حرام ولكن لا بد منه. أنا مؤمنة به.

ـ حرام ذلك يا أمي.

ـ أعرف ذلك، وصيتي يا سلمان. أحرقني، ثم تزوج، والدك يا سلمان وأمك لا تعرفهما.

ـ أنت أمي.

ـ أبوك رحل، وأمك يا سلمان رحلت..

يا ربي أعني.. أدركني يا علي.

ماتت، بقي فمها مفتوحاً، والجسد خشب بارد، كان وجه الحسين منوراً، وكوفيته الخضراء، رداء يغطي براري كربلاء، وجيش يزيد نمال من بشر تمتد من الشام الى الكوفة، تدب...

يكر السيف عليهم، فيقتل منهم من يقتل، والجمال الكربلائي لألف زينب يندب على مطارح الخيام.. العطش ندى، وبرد في حشاشة الحسين، وزلال في أفواه نسائه وأبنائه واخوته وصحبه.

تتشقق البراري الكربلائية عن ينابيع حلوة، تسقي الإمام وآل بيته فراتاً عذباً، والكفار يجرعون الماء رماداً، وقدم الكافر اللعين ابن اللعين، الشمر بن ذي الجوشن تدوس على ظهر الإمام، يحز رأسه من الوريد الى الوريد:

- «يبووووو.. يبووووو.. يبووووو.. يبووووو».

يسود البراري الظلام، ظلام تنوره نار خيام مضارب آل بيت الرسول المحترقة، ورؤوس أصحاب الإمام على رؤوس الرماح تقطر دماً، والشمر: «بوزه بوز الكلب»: ينادي جنده:

- «أحرقوا كل شيء.. أحرقوا خيامهم وخذوا نساءهم سبايا، وان سألوا عن الحسين فان الحسين قد مات وأموالهم حلال عليكم».

«يبووووو.. يبووووو.. يبووووووو.. يبووووووووو».

صب سلمان النفط على الكوخ، أشعل فيه النار، فالتهبت البساتين ظلالاً، وتوامضت نجوم السماء شرراً. طقطق قصب الصريفة. شم سلمان رائحة شواء جدث أمه - جدته.

تغادر جيوش الخليفة صحارى كربلاء، يقودها الشمر، وسبايا بيت الرسول أسرى، تشتعل كربلاء بنار المخيم المحترق وتطوي ظلال السبايا، وزينب الحرة تلوح، تودع الإمام القتيل، وصحبه الشهداء.. تودع ما بقي من رماد المخيم، وصحراء كربلاء ترويها ينابيع من زلال فراتي، في كل قطرة منها وجه الحسين.

الكوخ القصبي يهتز قبل أن تترمد مداميكه، ينهار كوما من جمر ودخان، وبقايا عظام الجدة، تتفتت هشيم رماد.

سلمان ينظر الى الشمس التي أشرقت فيما وراء سطوح بساتين النخيل.

كان الأفق يحترق أيضاً، ولكن بنار من ضوء السماء.

* * * * * *

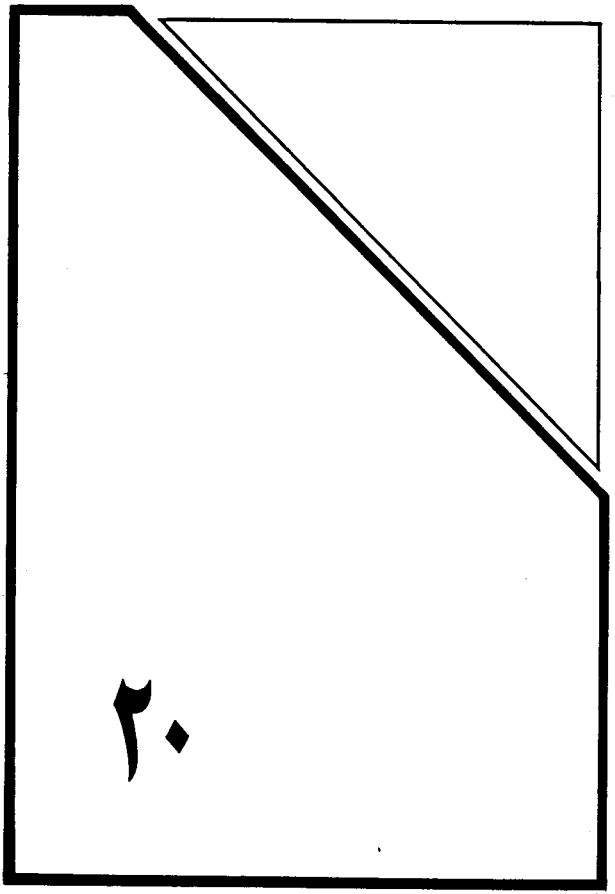
٢٠

كان ذلك قد جرى منذ زمن بعيد، وحين يتذكر من يتذكر لن يعلق بقوله سوى أنها محض طفولة حسب، سلسلة حياة قد قطعت..

أما ما حصل بعد ذلك فعلاً، فهذا ما لم يستطع كاتب السطور معرفته بدقة سوى أن حدثاً بارزاً شاع بين الناس، هو ظهور سلمان الحقيقي فجأة (في المكان ذاته الذي كان يعيش فيه الشيخ أيبارا صديقه القديم) بعد اختفائه اختفاءً كلياً... أي بعد عشرين سنة تقريباً، وقد بانت على ملامح سلمان الشيخوخة، وتساقط شعره، وانحنى ظهره... يمشي بطيئاً منكساً رأسه، يدمدم مع نفسه، يسربله قميص أزرق عتيق لربما أعطاه اياه أحد البحارة، وبنطلون ماحل اللون ونعال مترب، وأكثر ما كان يلاحظه الناس هو ابتعاد سلمان عنهم، وانزواؤه في الاماكن المنعزلة، قرب المحطة القديمة، التي الغيت منذ فترة ليست بالقليلة، أو عند الجسر الخشبي، فوق نهر الخندق، حيث البيت الذي هجره أصحابه مع كلبهم الذي قتله أحد المارة الغرباء، فيما بعد، وقد شاعت حكايات كثيرة حول سلمان، يتذكرها فلاحو هذه المنطقة، التي هجرت، وشقت فيها الشوارع واكتظت بالسيارات، والبيوت الجديدة

والناس الضاحكين القادمين من مناطق أخرى، ولم يعد للنخل تلك الوحدة، القوية، القاهرة، ولا للشط ذلك السحر الموشّى بالهدوء. ولم يعد من شيء يدل على ماضي المنطقة غير ظلال (سلمان العبد) الذي شاخ قبل ان يتم طفولته فعلاً، حتى ظنه الناس مجنوناً، وقد كان الاطفـال يركضون وراءه حين يرونه فيرجَمونه.. الا أنه لم يكن يلتفت اليهم، أو يزجرهم كما لم يكن يتحدث الى أي انسان، بدا كأنه لم يطق ان يعيش حياته هو، أما من بقي من معاصريه فقد تحدث عنه بأسلوب أسطوري ومنصف، فيما تحدث آخرون عنه بصورة مغايرة، تماماً، حطت من شأنه.. قالوا: كان لصاً، ودجالاً وأمـه ساحرة، وأنه قتل أمه وأحرقها، وكان على علاقة بالمخربين الشيوعيين، كما نوى سلخ كس احدى السيدات المحترمات، بل هي بالضبط زوجة باشا النقيب، وقالوا انها رعته وأشفقت عليه، وغمز آخرون بعلاقة جنسية مشبوهة بينه وبينها، كما كان على علاقة بـ (أشقيـاء)[1] المنـطقة الذين تابوا مثل (ستار قامه) أو الذين أعدموا مثل (كاظم صبخاية)، الا أن الوقائع التي يمكن أن يجدها المرء معقولة وسليمة، هي كما انجلت من وقائع المحكمة وأحاديث بعض الشهـود الأحيـاء، اذا اختـزلنـا المبـالغة، وقرأنا ما وراء السطور، وما وراء عقول القضاة، وكان قرار المحكمة:

ـ «ان سلمان بن حسين بن داود الملقب بالعبد الساكن في منطقة نظران في البصرة، والبالغ من العمر (١٥) عاماً قد أدين بجرم حرق جدته وهي نائمة، لذا حكم عليه حسب قانون العقوبات البغدادي

(١) الأشقياء: القبضايات، والفتوة.

المرقم ٨٢٧٦ وفق المادة (ب) بالسجن مدة (٢٠) عاماً مع الاشغال الشاقة».

رغم دفاع أحد المحامين الشجعان عنه، والذي قيل انه استمات في مرافعته الدفاعية عن سلمان، كون سلمان متعاطفاً مع الشيوعيين وان المحامي ذاته شيوعي، حسب ادعاء رجالات المخابرات... وأثناء بحثي المضني عن المحامي، عرفت أنه قتل منذ سبع سنوات، في ظروف غامضة وألقيت جثته قرب نهر (الترك)، الا أنني وجدت بين أوراقه ما يشير الى ملف قضية (سلمان العبد)، حيث دوّن المحامي على حواشيه أن الطب العدلي، أثبت موت الأم قبل حرقها، وأن سلمان أحرقها بناء على وصيتها، التي لم تكتب، وان تعنت القضاء ازاء هذه القضية راجع الى موضوع أبلغ وأعمق سببه أكثر من تقرير عن المتهم من محلة نظران، الى مديرية أمن البصرة: أكد أن (سلمان العبد) على علاقة وطيدة بالشيوعيين، وأنه ساعد المخرب الشيوعي (علي الحمداني) قبل مقتله، أما المحامي فقد علق بخط أحمر مميز، في الملف، بالجملة التالية:

ـ «انه محض اغتيال للمستقبل»...

وأثناء لقائي بأحد الشهود، وهو خادم حسينية (الخضر) ادعى ان سلمان تقمّص شخصية الإمام الحسين، وقد صرح بذلك الى أيبارا، كما نوى حرق الحسينية، والحقيقة أن أحد الصادقين الصامتين الذين استطعت بعد جهد طويل سلخ الكلمات منه قال: ان خادم الحسينية كاذب وان سلمان محض صبي يحب الإمام الحسين ويجاهر بالسير على خطاه، وان الخادم هذا قد هولت له شكوكه في ان سلمان يطمع بخدمة الحسينية كونه أحق من اي

انسان بذلك لان اباه ـ حمه الله ـ هو الذي بناها وعمرها، وكان سادناً عليها حتى وفاته...

أما المدعي العام فقد قال محللاً شخصيته بكل وقاحة: ان الصبي مجرد لقيط، لا يعرف أمه وأباه، وان التي أحرقها هي جدته التي أحنت عليه ورعته وأحبته، إلّا ان عقدة النقص فيه جعلته ناقماً حاقداً على الناس وعليها، خصوصاً بعد ان عرف قبل قتلها انها ليست أمه وأنها خدعته بقولها أنها أمه، فعمد إلى حرقها، وكأنه يريد حرق ماضيه.

وفي وقائع المحكمة كان أيبارا قد شهد قائلاً: انه يعرف سلمان ولداً ذكياً ولم يلحظ عنده أية نوايا عدوانية، أو عقدة نقص، وأنه كان يحب أمه ـ جدته جداً، وحين سأله المدعي العام عن سرّ قنينة الاسيد قال: إن سلمان كأي صبي يحب الاختراعات وقد سمع مراراً عن حجر الفلاسفة ذلك الذي يحول الحجر الى ذهب، وان صناعته تتم بخلط الاسيد مع حوامض ومواد كيمياوية أخرى.

فيما اتضح بعد وفاة أيبارا، سرّ موضوع قنينة الأسيد، حين باحه سلمان لأحد السجناء أثناء بحرانه وهذيانه، اثر اصابته بمرض عصبي: انه كان يود ان يذيب كس زوجة الباشا لأنها سبب البلاء والشرور في محلة نظران، ولربما في البصرة، والعراق والعالم...

وأثناء دفاع سلمان عن نفسه قال وقد شهد الناس له شجاعته في المحكمة:

ـ «أنا لم أحرق جدتي» وأنا أعرف أنها جدتي كنت احبها،

ولكنهـا قبل وفاتها أوصتني بحرقها مع البيت، لانها لا تريد ان تذهب لديدان الارض طعاماً، وانها ماتت مسلمة على دين محمد صلى الله عليه وسلم، وأنا أحب الإمام الحسين عليه السلام، ولم أنو حرق الحسينية، هذا كذب.. لا علاقة لي بالشيوعيين غير أنني أحب واحترم علي الحمداني صديقي».

ويتذكر الشرطي الواقف حد قفص الاتهام، أن التردد بان على وجه سلمان حين سأله المدعي العام عن قنينة الاسيد، وكان رده أنه اراد تحويل الحجر إلى معادن ثمينة، بواسطة الاسيد وعناصر كيمياوية اخرى فأوقعه رده هذا في جريمة أخرى هي صناعة السحر، وقد حاصره المدعي العام، قائلاً، ان سلمان دجال، وانه تعلم السحر والشعوذة من جدته، التي كانت تصنعه وتبيعه، وتروجه للسذج، وهذا في نظر الدولة والدين زندقة وتخريب لعقول الناس، وحرفها عن جادة الصواب وعن طريق الاسلام القويم...

وحين التقيت بعض السجناء الذين عاصروه، وعاشوا معه أخبرني أحدهم، وقد كان يمتهن صناعة الوشم: ان سلمان تعلم الصناعة منه بسرعة وحدثني آخر عنه أنه كان صامتاً، وعنيفاً أحياناً، فيتحاشاه السجناء، حتى العتاة منهم... لقد جن بعد أن قضى ما يقارب العشر سنوات سجيناً، وقد تشاجر مع الحراس مرة طالباً منهم الخروج، وحين رفضوا شقق جسده بالموسى. كان ينزف بغزارة، وهو يرفس الباب حتى أغمي عليه ونقل الى المستشفى.

حاول سلمان الهرب من السجن، مما اضطر إدارتها إلى نقله الى مستشفى المجانين بعد انقضاء اكثر من (١٥) سنة على حبسه.

طبيب مستشفى المجانين كتب في مذكرته قبل ان يموت هو ذاته مجنوناً:

- «سلمـان العبد مصاب بنوع من الشكيزوفرينيا سببه عدم استقـرار طفولته بشكل طبيعي، وقفزه الى مرحلة الرجولة فجأة، وحتى الرجولة، كأنه قضاها بطفولة سريعة. وسيبقى كذلك حتى يموت، انه مجرد رجل - طفل، أو طفل - رجل.

وما دافع العنف عنده الا محاولته الجادة لتغيير ما حوله، واذ عجز عن تحقيق طموحه ارتدت حالته بصورة مضطربة الى دواخله، فأوشك ان يدمرها. أنا متأكد ان سلمان سليم العقل، لو توفرت له ظروف أفضل للحياة»، «ان حظه لتعس حقاً».

ولما سألت المرضة التي كانت ترعاه في ذلك المستشفى نصف المعتم، العفن الحجرات قالت:

- «كـان سلمـان ينـام بعمق هادئـاً، عمـوماً. أذكر أنه طلب مضاجعتي، فضحكت، فما كان منه إلاَّ ان ضحك، وكأنه يضحك لأول مرة في حياته.. ثم أخبرني: أنه عديم النفع، ولن ينكحني وقد ضبطته مرات وهو يمارس العادة السرية بلذة عجيبة».

* * * * * *

مع غروب الشمس، وانحلال صور النخيل، ورحيل العمال مع آلات العمل من شاحنات وجرافات، لاحت الطريق نصف المسفلتة، رقعة سوداء ألصقت على قلب البساتين توا، كمن يرسم شوارب على صورة ممثلة قديمة.

وليس بعيداً عن تلك البقعة كان الشبح المنسي (سلمان) يقف أمام مياه نهر الخندق يحدق فيها، غير آبه بوجود أو ذهاب العمال، ولا بآلاتهم الضاجة، الا أنه اخيراً جلس عند جرف النهر، ووضع رأسه بين يديه كأنه لوحة من لوحات الفنان فان كوخ.. كان المنظر حقيقياً اكثر من ان يكون ذلك...

الظلام القاسي لفّ المنطقة بأسرها. ضاعت ظلال الجسد المحني الوحيد، غير ان من يقترب منه اقتراباً حذراً، سيظنه مجرد نخلة أوشكت على الموت، زرعتها يد مجهولة، منذ قرن، وما عدا ذلك بعد سنين فقد نسي الناس أمر سلمان حتى وفاته ودفنه في مقبرة المنسيين في جادة الزبير، ولم يعد ذكره سوى حكاية، أضيف اليها الكثير من التهويل، للادهاش أو التسلية يتسلى بها أبناء محلة نظران في أوقات ضجرهم، وما أكثرها من أوقات.

* * * * * *

ليست
خاتمة

في عزلة تامة، غير محدودة بالزمن، قبله أو بعده، منذ الأزل والى الأزل، تدور وتتداخل تلك الدوائر، يحكمها ماضيها السحيق، غير مرئية، أو معقولة، يبرزها التداخل دوماً، يبرز ميزاتها، وخصائصها المتفردة، وطباعها وألوانها، يجردها من حياة الآدميين، بعد ان فقدت حياتها الاصلية، تاركة حقيقتها التي لم يدمرها الموت، أو دمر الفاني منها، فتسامت بقاياها، تواشجت مع الماء والهواء، انفصلت، وشفّت في الفضاء، تجمعت هناك...

لقد تركت الحيوات دون ان تدري في حمأة لهاثها الحياتي السريع أسرار خلودها على الأشياء، بصماتها على خزف الأكواب، عيونها المترقبة، تعبى امام الساعات الحائطية ، افرازاتها على الافرشة والاسرة، دموعها، على المخدات، آثار فقراتها المبعوجة على جلد الكراسي، بقع دم على بلاط الشارع، آهات، أحلام، نحيب، ضحك، قيء، نفثة ضجر قتّال.

دوائر، داخل دوائر، تدور تشكل دوامة تخترق السماء السوداء منحدرة في تشابك كوني، تتسارع وتبطيء، وتتسارع، تلج مياه

الشط، تخرقها، تصلها أبداً بحبل سري يربط الفضاء والماء بالفضاء.

دوائـر مركزها دوائر تدور بأناة عمودياً وتغوص في الماء الذي ينـداح عنها، ثم يحتويها ويمتصها نهماً، مستقطباً مويجاته في نقطة التقائه بها، الى فجوة بئرية تجذب الدوائر كالمغناطيس الى احشاء الشط وأعماقه، انها تلك البقايا الباقية من الماضي البائد، تلك الحيوات التي ما زالت تصر على الحياة في يأس وقنوط: حياة الناس الميتين الذين لو قيض للنور، لبصيص منه ان ينبثق فجأة، لكشف وبدقة متناهية، أن تلكم الدوائر لم تكن سوى وجوه وأجساد وأعـضـاء وعيـون المـوتى الزائلين (الا انفـاسهم واحـلامهم وانطفاءاتهم الغامضة ما فتئت حاضرة) مقتولين خائبين أو مرضى، كل يعبر عن حقيقة ما كانه: رجال يقاومون الغرق يائسين، يلبسون مزق أزياء انكليزية أو هندية أو عراقية يعضون على أصابعهم، وزنجيات كبلهن الخدم، وباشا فرج ساقيه تحت ملاءتين بيضاوين.

تصرخ امرأة منكبة على فراشه تمد يدها الى الزنجيات، فيما ينظر الباشا غير مكترث بهن الى خيول جامحة تدوس امرأة مقيدة، تربط ثدييها بقدميها، يندفع اليها شيخ حاملاً شاباً ميتاً على ظهره، متعثـراً بالألبسة الداخلية وشرائط الدانتيل، وعناقيد السلاسل. تدور الدوائر تقاوم غرقها في المياه.. يحاول بضعة رجال الخروج منها، يبدو أنهم يقاومون موجاً عاتياً على طوف محطم، كانت تصرخ معهم امرأة حبلى، ساح بين يديها طفل تدلت ذراعاه باستسلام.

دوت دمدمة صاخبة ولغط، وصراخ، وركضت خيول (الزند)[1] فوق المياه، وانهارت سفن الانكليز على الضفاف، وتراكض القراصنة نحو المراكب، واحترقت مراكب توغلت حتى (نهر خوز)[2]، امرأة تسند اخرى يفزعها الدمار والحرائق.. حينئذ انبثق عملاق أسود وسط الدوائر قلبه فراغ، ورأسه هرم من ظلام، رافعاً قبضته متوعداً السماء. صهلت الخيول وهي تقاوم الغرق مع العملاق الغائص حتى القعر: غير مكترث برجل باك تعلق بامرأة تعلقت هي بآخر غاف أو خدر، تشبثت به نساء مغمضات العيون، كلهم كانوا داخل حلقة مركزها الظلام والماء، يتطلع اليهم جنود ترك وفرس، وانكليز، عباسيون وسلجوقيون وبويهيون، بابليون وسومريون، وأكديون، لابسين دروعاً وخوذا حديدية حاملين الهراوات والسيوف، والفؤوس والخناجر، وبنادق (الشيشخانة) أو (المارتيني) أو (البرنو)، تخطفهم الدوائر وتذهب بهم الى القاع، تتلهف الامواج الى المزيد، فتقاومها بشراسة فتاة تمزّق طرف ردائها، شعرها وحشي. كانت تحتضن غراباً حياً ينعق بوقاحة على أشلاء البشر ورؤسهم الفاغرة عن كسر رماح وسهام وطلقات صدئة...

تعود الكواكب تنتظم في دورانها الأزلي، في استقلاليتها الثابتة، واصرارها على عزلتها، عن كل الحيوات النائمة والمستيقظة، على ضفتي الشط بصياديه وشرطته ويلّامته، وسراقه، وعواهره، تلفه قوة

---

(١) الزند: أقوام فارسية غزت البصرة في العصور الوسطى، ثم دحرها البصريون.

(٢) نهر الخوز: أحد أنهر منطقة أبي الخصيب، في البصرة، حيث ما زالت ترقد في قيعانه بقايا عاصمة الزنج المختارة.

الظلام، تدفعه قوة الزمن المتجبر العاتي الذي لا مرد له، إلا الانصياع والقبول بالنهاية المحتومة، حيث تتبع الاشياء أشياءها وتوابعها لتدفن في المياه، بعد أن تفقد أهميتها وضرورتها، بعد أن تعفن الماضي فيها، غير أنها ما برحت تفضح بعضاً من أسرارها، تبثها مويجات خفية اللمسات...

ها انها تتناثر، تنهار انهيارات موجية متعاقبة، عبر مسارات الخط الشاقولي للدوائر جارفة معها كسراً من آجر تزخرفه أشكال نباتية، ونثار حروف لربما نحتها يوماً رجل على جدار جامع، أو فوق باب مرقد، نثار تنمنمه نحوت وريقات الآس والعنب وثمار البلوط، وتويجات الورود المتشابكة على هيئة أحرف كوفية، ملتحمة النهايات.. ان هي الا جملة قدسية أضفى الزخرف عليها طابع الغموض المعقد كأنها تختل فيه، تخفي سحرها الديني: لا غالب ولا مغلوب.. الانهيارات تتوالى، تستمر، تندفع الى المياه، الى قدرها الأبدي الذي لا تحيد عنه مكتسحة الماضي، أشياء الماضي، ناس الماضي وتفاصيله؛ وردةً مهملة على قميص أفندي، أسطوانةً لـ (صديقة الملاية)[٣]، فونوغرافاً عاطلاً، طربوش باشا، صندوقاً محلّى بالصدف اقتنته عانس مرمرها الكبت الجنسي، عباءة اعرابي ممزقة، أعواد بخور، سجاجيد كاشانية، أباريق برونزية، أعلاماً كتب عليها «يا حسين يا شهيد كربلاء..» ورنين كلمات أغنية قديمة تنوح أسىً في الصمت القاحل:

ـ «عليهم.. عليهم ذبني عليهم

---

(٣) صديقة الملاية: مغنية.

يلله يمجري الماي ذبني عليهم
الافندي الافندي
الله يخلي صبري.. صندوق امين
البصرة».

يذوي الصوت الغنائى العذب الحزين، يذويه قتام كرنفال الحشود الماضية، العتيقة، الدائرة على نفسها، الفاقدة لبهجتها، وهي تتعلق بشراشب بكارة الماضي الذي مزقته السنون..

فلم يتبق على صفحة المياه الصافية الابنوسية سوى أشلاء شبحين؛ رجل وامرأة روحين شفافتين، رقيقتين، أغمضا عيونهما، على ثغريهما ابتسامة غريبة، لم تشوه نقاء قسماتهما، وكأنما استلقيا الان جنباً الى جنب فاستغرقهما حلم مشترك، جعل الرجل يبسط ذراعه اليسرى على طول بقاياه الطافية، فاتحاً كفيه كأنه يطلب شيئاً أو يفلت شيئاً، طار من بين اصابعه، والمرأة مدت ذراعها اليمنى كي تمسك ذلك الطائرَ الذي غافلها وهرب: طائراً عزيزاً على قلبيهما رمز حبهما وبقائهما. أو لعله صورة حياتيهما السابقة، فيما اختفت كل معالم الجسدين في الماء سوى الوجهين النائمين، والذراعين الممدودتين.

هجعة أخيرة، وموت أخير غزا فجأة جسديهما الفتيين: فرقدا هكذا دون ان تتشوش تصفيفة شعر المرأة المفروق من وسطه، ودون ان تتناثر خصلات الرجل المرسلة على جبينه الناصع البياض.

صعدت المياه الى البقايا الطافية صعوداً بطيئاً قاتلاً وغطت كتف

المرأة، وزند الرجل، ثم احتوت رقبتيهما: فاسحة ثنيتين لتدويرتي الرأسين اللذين أخذا تواً بالغوص رويداً رويداً... وتماوجت خصلات لمرأة في انسحابها الى داخل المياه التي غطت الوجهين النائمين شيئاً فشيئاً، فتخلفت ابتسامتهما الغامضة، التي ما لبثت ان تلاشت خلل اخاديد المويجات الرقيقة واختفت كحلم تحت غطاء الماء الذي جمده الظلام تلك اللحظة.

ليعود منساباً جبروتياً، ماحياً.
كل ما تبقى من سخرية، أو ثقة
أو لذة حالمة، في أغوار الظلام.

ولدت هذه الرواية في يوم ١٠ /٢ /١٩٨٤، واكتملت في ٢٣ /٦ /١٩٨٨، متشردة ما بين القامشلي، ودمشق، وحمص، وبعلبك، وصيدا.

يا كوكتي

التجريب في أفق البناء الروائي المفتوح، القائم على تجاور الفضاءات والمشاهد والأحداث وإضفاء الطابع الأسطوري على اليومي المعتاد.

يتميز هذا النص بلغته وبنائه: لغة ثرية، دقيقة لاقطة للتلاوين والتفاصيل. والبناء يقوم على مجموعة مشاهد وفضاءات وتذكرات كأنما تلتقطها عين كاميرا متجولة عبر الحقب والأمكنة بلا حدود أو حواجز وداخل مسار متصاعد من الفرد إلى الجماعة، ومن اليومي إلى الاسطوري تنتصب الكتابة عنصراً بارزاً، مشحوناً بالحمولات الفكرية والتخييلية والايديولوجية لتضع كل شيء موضع تساؤل... لتعوض المقدس بالدنيوي.

«محمد برادة»

1855131455